أعلام المسلمين

١٢

السيّدة عائشة رضي الله عنها

أم المؤمنين، وعالمة نساء الإسلام

٧ ق هـ - ٥٨ هـ

تأليف

عبد الحميد محمود طهماز

دار القلم

دمشق

الطبعة الخامسة
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٩١٧٧
بيروت - ص. ب : ١١٣/٦٥٠١

هَـٰذِهِ السَّـيِّدة

« هذه زوجتك في الدنيا والآخرة » .

جبريل عليه السلام وقد قاله للنبي ﷺ

« يا عائشة ، إن جبريل يقرئك السلام » .

محمد رسول الله ﷺ

« ما أشكل علينـا أصحاب رسـول الله ﷺ حديث قط ، فسألنا عائشة ، إلا وجدنا عندها منه علماً » .

أبو موسى الأشعري

« الصدّيقة بنت الصدّيق ، حبيبة رسول الله ﷺ ، المبرأة في السماء » .

مسروق بن الأجدع الهمداني
التابعي المشهور

« أم عبد الله ، حبيبة رسول الله ﷺ ، بنت خليفة رسول الله ، من أكبر فقهاء الصحابة » .

الإمام الذهبي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد :

فقد مرّ على حياة السيدة عائشة رضي الله عنها ثلاثة عشرة قرناً ونصف دون أن تدرس حياتها في كتاب مستقل يحيط بمختلف جوانبها ، ويبرز أهم خصائصها ومناقبها ، مع أن السيدة عائشة رضي الله عنها تعد أبرز امرأة في تاريخنا الفكري والسياسي ، بل هي عَلَم من كبار أعلامه ، تركت آثاراً كبيرة لا تزال ماثلة في حياة أمتنا حتى الآن .

وإخراج مثل هذا الكتاب دَيْن في عنق الأمة ، لم يف به كل ما كُتب عن السيدة في كتب التراجم المختلفة ؛ إذ لم يتمكن كتاب التراجم من الإحاطة بكل جوانب حياة السيدة عائشة رضي الله عنها العلمية والأدبية والسياسية ، لأن مثل هذه الإحاطة تحتاج إلى كتاب مستقل .

ولعل سبب ذلك يرجع إلى صعوبة الإحاطة بجوانب حياتها المتعددة والمتشعبة ، أو لكون الكتابة عن السيدة

شائكة جداً ، وبخاصة الجانب الذي يتصل بحياتها السياسية ، فقد تحاماه أكثر كتاب التراجم الذين كتبوا عن السيدة ، والذين تعرضوا له اكتفوا بالتلميح والإشارة دون التصريح بالعبارة .

وقد قام الأستاذ سعيد الأفغاني منذ ثلاثين عاماً تقريباً بإخراج كتاب تناول فيه الجانب السياسي في حياة السيدة عائشة رضي الله عنها ، وقد أتى فيه بالكثير الطيب ، ولكن الكتاب لم يخل من بعض التهم الظالمة التي وجهها المؤلف للسيدة ، متأثراً ببعض الروايات التاريخية والأدبية التي تلقفها من مصادرها دون أن يحقق في سندها ومتنها ! ولو أنه فعل ذلك والتزم ما ألزم نفسه به في مقدمة الكتاب لما وقع فيما وقع فيه .

وأخرج الكاتب المشهور عباس محمود العقاد للناس كتاباً عن السيدة أسماه « الصدّيقة بنت الصدّيق » واقتصر فيه على إبراز معالم شخصيتها ؛ من خلال تحليله لبعض الأحداث الهامة في حياتها ، ووقع في مثل ما وقع فيه الأستاذ الأفغاني .

إننا بحاجة ماسة إلى أن نكتب تاريخنا بأسلوب المحدّثين ، ملتزمين المنهج العلمي الدقيق الذي التزم به أولئك العلماء الأفاضل ، فهو أقرب المناهج للوصول إلى الحقائق التاريخية ،

ولقد حرصت في هذا الكتاب على التزام منهجهم العلمي الدقيق ، الذي يعتمد على نقد السند والمتن ضمن القواعد التي رسموها في علم أصول الحديث .

وما فكرت في يوم من الأيام أن أكتب في موضوع السيدة عائشة رضي الله عنها ، ولكني وجدت بين يدي معلومات وفيرة عن حياة السيدة وخصائص شخصيتها ؛ بعد دراستي لمسند السيدة واستقرائي لمروياتها في أمهات كتب السنة ، معلومات ثمينة محققة لا ينبغي أن تبقى حبيسة الأوراق ، تكشف عن جانب كبير هام في حياة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، يحتاج كل إنسان إلى معرفته ورؤيته من قريب لما له من صلة بحياة الانسان الخاصة والشخصية .

فقمت بترتيب هذه المعلومات بعد أن أضفت إليها تحقيقاً للروايات التاريخية عن حياة السيدة رضي الله عنها بعد النبي ﷺ ، فجاء الكتاب ـ والحمد لله ـ صورة واضحة تامة لحياة السيدة عائشة رضي الله عنها .

ولا شك أن السيدة مدينة بكل جوانب عظمتها إلى النبي ﷺ وتشرفها بالحياة في كنفه عليه الصلاة والسلام ، لذلك قسمت الكتاب إلى ثلاثة فصول رئيسية : أولها خصصته

بحياتها قبل أن تنتقل إلى بيت النبوة ، وثانيها خصصته بحياتها في بيت النبوة ، وثالثها خصصته بحياتها بعد وفاة النبي ﷺ ، وكيف كانت علاقتها مع الخلفاء بعده عليه الصلاة والسلام ، ثم أضفت إلى الكتاب فصلاً رابعاً خصصته لبيان المعالم الكبرى في شخصية السيدة رضي الله عنها ، مع تركيز على الجانب العلمي والأدبي من معالم شخصيتها .

ولم يفتني خلال هذه الفصول الأربعة أن أشير إلى نضال السيدة وجهادها من أجل إنصاف المرأة ورفع الظلم الذي كانت تعاني منه في الجاهلية ، فللسيدة في هذا المجال سهم وافر ، وسيرى القارىء ثمرات جهود السيدة في هذا المجال فيما نعمت به المرأة من مكانة رفيعة وحقوق إنسانية كاملة في ظل شريعة الاسلام .

وإذا أراد النساء الحياة الانسانية الكريمة والحقوق الكاملة العادلة ، فما عليهن إلا أن يقتفين خطوات السيدة عائشة رضي الله عنها في هذا المجال ، ويقتدين بها كمثل رفيع للمرأة المسلمة .

وإنه ليسعدني أن تتم هذه الدراسة لحياة أبرز امرأة في تاريخنا في العام الذي أطلقوا عليه عام المرأة الدولي ، ليرى

الناس حقيقة المنزلة التي بوأها الاسلام للمرأة بشكل عملي بعيد عن كل تزويق وتزييف .

إن حياة السيدة عائشة رضي الله عنها صورة صادقة لحياة المرأة المسلمة ، وتطبيق عملي لمكانتها في الكتاب والسنة ، وبيان لهوية المرأة الحقيقية .

والله سبحانه أسأل أن يبصرنا بالحقيقة رجالاً ونساء ، ليعرف كل منا مكانته وحقيقته في هذه الحياة ، فيضع نفسه في موضعها الطبيعي ، ويؤدي عمله الذي خلقه الله من أجله ، وله الحمد سبحانه أولاً وآخراً .

حماة في ١٠ جمادى الأولى ١٣٩٥ ه
الموافق ٢٠ أيار ١٩٧٥ م

الفقير إلى الله تعالى
عبد الحميد طهماز

الفصل الأول

في بيت الصدق والإيمان

اسمها وكنيتها	العروس المهاجرة
نسبها	الزواج الميمون
أمها	الاستعداد للزفاف
إخوتها	يوم الزفاف
الأسرة المهاجرة المجاهدة	مهر العروس
ولادتها	مهبط الوحي
طفولتها وصباها	جهاز العروس
الخطبة المباركة	معيشتها

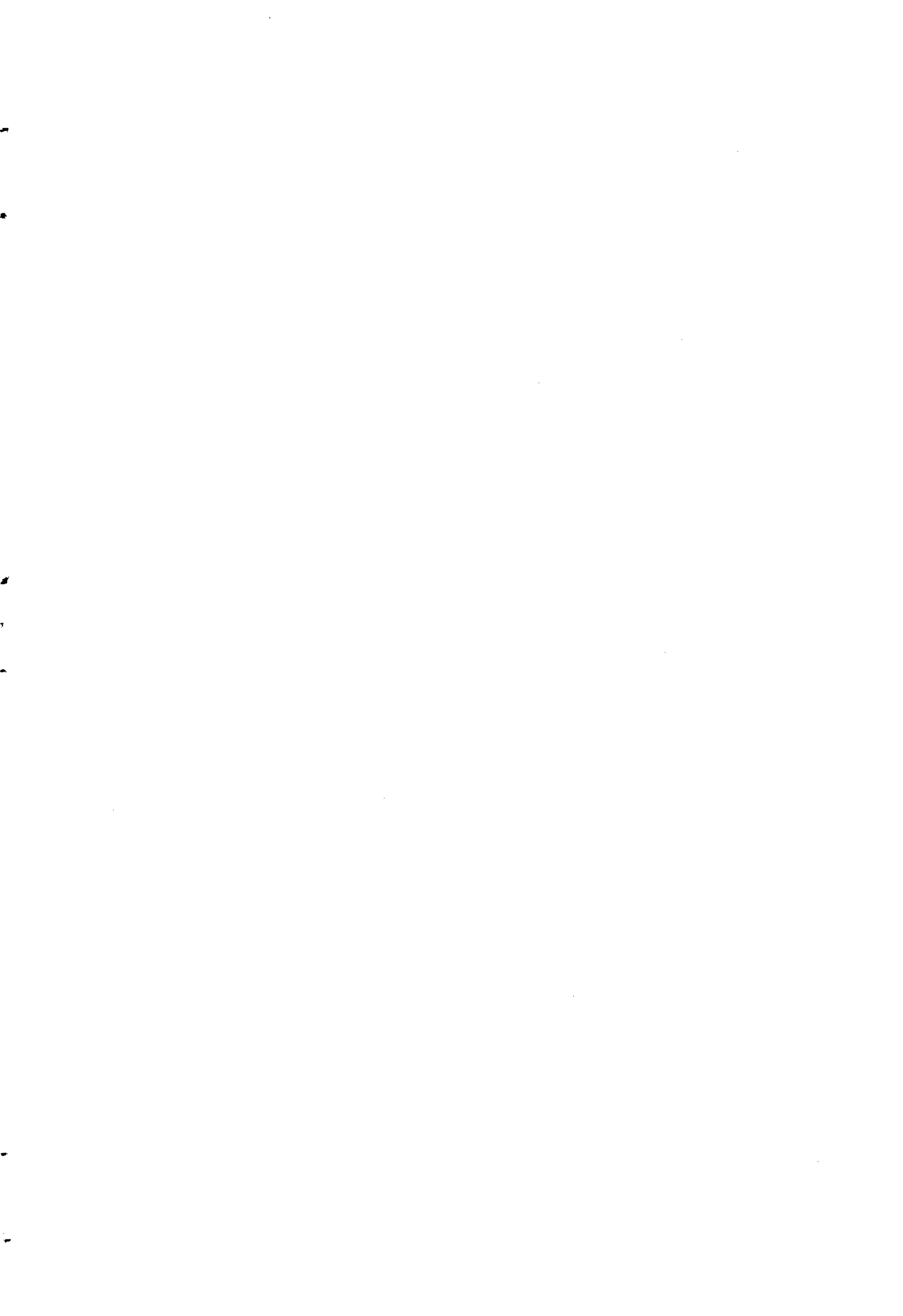

في بَيت الصّدق والإيمان

اسمها وكنيتها :

اسمها الذي عرفت بـه عائشة ، مأخوذ من العيش ، وقـد كان النبي ﷺ يناديها أحياناً بـ (يا عائش) على الترخيم ، ففي البخاري عن عائشة قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشُ ، هذا جبريل يقرئك السـلام . . » وفي الشمائل للترمذي أنه عليـه الصلاة والسلام خاطبها بقوله : (يا موفّقة) [١] ، وكثيراً ما ناداها ﷺ بـ (يا بنت الصديق ، يا بنت أبي بكر) .

وطلبت من النبي ﷺ أن تكتني ، فقال : « اكتني بابنك عبد الله » ــ يعني ابن أختها أسماء (عبد الله بن الزبير) ــ فكانت تُكنى بأم عبد الله [٢] . وفي سنن النسائي حديثان يدلان على أن النبي ﷺ كان يناديها أيضاً بـ (ياحُمَيراء) [٣] ، وأما ما يلهج بـه كثير من الفقهاء وعلماء الأصول من إيراد حديث « خذوا شطر

---

(١) السمط الثمين .

(٢) رواه ابن ماجه وأبو داود .

(٣) انظر السمط الثمين .

دينكم عن هذه الحميراء ، فقد قال فيه ابن كثير : « ليس له أصل ، ولا هو مثبت في شيء من أصول الاسلام ، وسألت عنه شيخنا أبا الحجاج المِزّي ، فقال : لا أصل له »[1]. والحمراءُ في خطاب أهل الحجاز ، هي البيضاء الشقراء ، وهذا نادر فيهم ، ولعل الذهبي استدل من وصف السيدة بالحميراء على أنها كانت امرأة بيضاء جميلة[2].

نسبها :

عائشة بنت الإمام الصدّيق الأكبر خليفة رسول الله ﷺ ، أبي بكر : عبد الله بن أبي قحافة : عثمان بن عامر ، بن عمرو ، بن كعب ، بن سعد، بن تَيْم ، بن مرة ، بن كعب، بن لؤي ، القرشية التيميّة المكية النبوية أم المؤمنين[3] . وجمهور أهل النسب على ان اسم والدها عبد الله ، سمّاه به النبي ﷺ لما أسلم ، وكان اسمه من قبل عبد الكعبة ، قال ابن عساكر : كادت الروايات تجمع على أن اسمه عبد الله ولقبه عتيق[4] ، وروى الترمذي عن عائشة أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ فقال : « أنت عتيق الله من النار » فيومئذ سُمّي عتيقاً ، وكنيته

---

(١) البداية والنهاية ٤/٩٢ .
(٢) سير أعلام النبلاء .
(٣) سير أعلام النبلاء .
(٤) أبو بكر للطنطاوي .

أبو بكر ، والبَكر : الفتيُّ من الإبل ، وصح أن النبي ﷺ كان يناديه بكنيته هذه .

اشتهر منذ الجاهلية بلقب الصدِّيق ، وذلك أنه كان رئيساً من رؤساء قريش ، وكانت إليه الأشناق - وهي الديات - فإذا تحمّل شنقاً أمضت قريش حمالته وقامت معه ، وإذا تحملها غيره خذلوه ولم يصدقوه [1] .

ودعي في الاسلام بالصدِّيق أيضاً ليلة أُسري بالنبي ﷺ ، فأصبح يحدِّث الناس بذلك ، فارتد أناس كانوا آمنوا به ، وسعى رجال من المشركين إلى أبي بكر ، فقالوا : هل لك إلى صاحبك ؟ يزعم أنه أُسري به الليلة إلى بيت المقدس ، قال : وقد قال ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : لئن قال ذلك لقد صدق ، قالوا : تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ، قال : نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء في غدوة أو روحة !! ثم انتهى إلى النبي ﷺ فطفق يسمع منه ويصدقه ويقول : أشهد أنك لرسول الله ، حتى إذا انتهى قال : « وكنت (يا أبا بكر) الصدِّيق » [2] .

وفي الصحيحين عن أنس أن النبي ﷺ صعد أُحُداً فتبعه

(١ - ٢) أبو بكر للطنطاوي .

أبو بكر وعمر وعثمان ، فرجف بهم ، فضربه النبي ﷺ برجله وقال : **« اثبت أحد ، فما عليك إلا نبي وصدّيق وشهيدان »** .

أمها :

أم رومان ، واختلف في اسمها ، فقيل : زينب ، وقيل : دعد بنت عامر ، بن عويمر ، بن عبد شمس ، واختلف في نسبها من عامر إلى كنانة ، لكن اتفقوا على أنها من بني فراس ، بن غنم ، بن مالك، ابن كنانة [١] . أسلمت قديماً كما يدل عليه كلام السيدة : **« لم أعقل أبويّ إلا وهما يدينان الدين »** [٢] ، وهاجرت بعد ما استقر المقام بأبي بكر في المدينة ، وروى ابن سعد أن أم رومان توفيت في حياة النبي ﷺ سنة ست من الهجرة وأن النبي ﷺ نزل في قبرها واستغفر لها ، والصحيح أنها توفيت بعد ذلك ، لأن البخاري ذكرها في تاريخه الأوسط والصغير في مَنْ مات في خلافة عثمان [٣] وقال ابن حجر : والذي ظهر لي بعد التأمل أن الصواب مع البخاري [٤] .

إخوتها :

تزوج أبو بكر رضي الله عنه في الجاهلية قتلة ، وقيل :

---

(١) أبو بكر للطنطاوي .
(٢) سيمر معنا الحديث كاملاً .
(٣) أبو بكر .
(٤) فتح الباري ٧/٣٣٧.

قتيلة بنت عبد العزى القرشية العامرية ، واختلف في إسلامها ، فولدت له : عبد الله ، وأسماء . وتزوج أيضاً أم رومان ، وولدت له : عبد الرحمن ، وعائشة ، ومر معنا أنها أسلمت وهاجرت . وتزوج في الاسلام أسماء بنت عميس رضي الله عنها ، فولدت له محمداً . وتزوج أيضاً حبيبة بنت خارجة ، فولدت له بعد وفاته بنتاً سميت أم كلثوم[١] .

الأسرة المهاجرة المجاهدة :

هذه هي أسرة السيدة عائشة رضي الله عنها ، أسرة مسلمة مهاجرة ، بادر كل أفرادها إلى الاسلام ، عدا عبد الرحمن ، وهو شقيق السيدة ، تأخر إسلامه ، وشهد بدراً وأحداً مع المشركين ، ودعا إلى البراز يوم بدر ، فقام إليه أبوه رضي الله عنه ليبارزه ، فقال له رسول الله ﷺ : **« متعني بنفسك »** ثم منّ الله عليه فأسلم في هدنة الحديبية[٢] .

ولم تبلغ أسرة من الأسر المسلمة مابلغته أسرة أبي بكر في جهادها وتضحيتها في سبيل نشر دعوة الاسلام ، ويكفي هذه الأسرة فضلاً ما قدمته في هجرة النبي ﷺ ، التي تعد — بحق — أعظم تحول في تاريخ الدعوة الاسلامية ، بل جعلها الصحابة مبدأ التاريخ الاسلامي الحقيقي ، فأرّخوا بها .

(١ — ٢) أبو بكر .

قال سهل بن سعد : ما عدّوا من مبعث النبي ﷺ ولا من وفاته ، ما عدّوا إلا من مقدمه المدينة[1] . وقال عمر بن الخطاب: **الهجرة فرّقت بين الحق والباطل فأرّخوا بها**[2] .

وبذل كل أفراد هذه الأسرة المؤمنة رجالاً ونساءً جهوداً كبيرة حتى تمت الهجرة ، ووصل ﷺ إلى المدينة سالماً ، وإليك جــزءاً من حديث الهجرة كما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث السيدة عائشة ؛ لتعرف فضل هـذه الأسرة في التخطيط للهجرة وفي تنفيذها : (. . . وتجهز أبو بكر قِبَلَ المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « على رِسْلِكَ فإني أرجو أن يُؤذن لي » فقال أبو بكر : وهل ترجو ذلك بأبي أنت ؟ قال : « نعم » فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه ، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السَّمُر ، وهو الخَبَطُ ، أربعة أشهر .

قالت عائشة : فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أبي بكر في نحر[3] الظهيرة قال قائل لأبي بكر : هذا رسول الله ﷺ متقنّعاً ، في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، فقال أبو بكر : فداءٌ له أبي وأمي ، والله ماجاء به في هذه الساعة إلا أمرٌ ، قالت : فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن ، فأُذن له فدخل ، فقال النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري .

(٢) فتح الباري ٧/٢٠٩ .

(٣) نحر الظهيرة : حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع .

لأبي بكر : « أخرج مَنْ عندك » فقال أبو بكر : إنما هم أهلك – بأبي أنت – يارسول الله ، قال : « فإني قد أُذن لي في الخروج » فقال أبو بكر : الصحابة – بأبي أنت – يارسول الله ، قال رسول الله ﷺ : « نعم » قال أبو بكر : فخذْ – بأبي أنت – يا رسول الله إحدى راحلتَيْ هاتين ، قال رسول الله ﷺ : « بالثمن » قالت عائشة : فجهزناهما أحثَّ[1] الجهاز ، وصنعنا لهما سُفرة في جرابٍ ، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب ، فبذلك سميت ذات النطاق .

قالت : ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور ، فكَمَنَا فيه ثلاث ليال ، يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر ، وهو غلام شاب ثقفٌ لقنٌ ، فيدلج من عندهما بسحرٍ ، فيصبح مع قريش بمكة كبائت ، فلا يسمعُ أمراً يُكتادان به إلا وعاهُ حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامرُ بنُ فُهيرة مولى أبي بكر منحةً من غنمٍ ، فيريحها[2] عليهما حين يذهب ساعة من العشاء ، فيبيتان في رسلٍ ، وهو لَبَنُ مِنحتها ورضيفها[3]، حتى ينعق[4] بها عامر بن فهيرة بغَلَسٍ ، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث ...).

---

(١) أي أسرع الجهاز .

(٢) أي يمر بها عليهما مساءً .

(٣) الرضيف : اللبن الذي وضع على الرضف وهي الحجارة المحماة .

(٤) يقال : نعق الراعي بالغنم ، إذا دعاها لتعود إليه .

وتحمّل أفراد هذه الأسرة أيضاً شـــدة العيش من أجل الهجرة ، أخرج ابن إسحاق عن أسماء رضي الله عنهـا قالت : لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر رضي الله عنه معه ، احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف درهم فانطلق بهـا معه ، قالت : فدخل علينا جدي أبو قحافة ـ رضي الله عنه ـ وقد ذهب بصره ، فقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت : كلا يا أبت إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت : وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، وقال : لابأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن وفي هذا بلاغ لكم ، ولاوالله ما ترك لنـــا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيـخ بذلك[1] .

ولادتهـــا :

في بيت الصدق والإيمان ولدت السيدة رضي الله عنها ، فهي ممن ولد في الاسلام ، وهي أصغر من السيدة فاطمة رضي الله عنها بثماني سنين ، وكانت تقول : **لم أعقل أبوي إلا وهما يدينان**

---

(١) حياة الصحابة ٣٣٧/٢ .

الدين[١] . قال الزركشي : لم ينكح النبي ﷺ امرأة أبواها مهاجران سواها ، وذكر من مزايا السيدة أن أباها وجدّها صحابيان[٢] ، وذكر أبو بكر بن أبي خيثمة أن عائشة أسلمت صغيرة بعد ثمانية عشر إنساناً ممن أسلم[٣] وكانت ولادتها قبل الهجرة بسبع سنوات على الأرجح ، فقد صح عنها أنها قالت : تزوجني رسول الله ﷺ لستّ سنين ، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين[٤] . والمشهور أنه ﷺ بنى بها في شوال بعد غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة .

طفولتها وصباها :

فولادتها إذن في السنة السادسة أو الخامسة ، وقيل في الرابعة ، من بدء البعثة النبوية الشريفة ، وفي سنوات طفولتها مرت الدعوة إلى الاسلام بأشد مراحلها ، وتعرض المسلمون خلالها لأقسى أنواع الأذى والاضطهاد ، ولم ينج من الأذى أحد ، وقد حدثتنا السيدة عن بعض ما أصاب والدها الصديق رضي الله عنه من الأذى في سبيل دينه ، حتى خرج من مكة مهاجراً نحو

---

(١) النبلاء .
(٢) الإجابة .
(٣) عيون النجابة .
(٤) متفق عليه .

أرض الحبشة ، ولما بلغ بَرْك الغماد لقيه ابن الدُغَنَة — وهو سيد قبيلة القارة — فأرجعه إلى مكة وأجاره من أذى قريش وقال له : فإن مثلك يا أبابكر لا يَخرجُ ولا يُخرجُ . **إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق** ، فأنا لك جار ، فارجع فاعبد ربك ببلدك[١] .

- ويبدو أن السيدة كانت في طفولتها كثيرة اللعب دائبة الحركة ، بلغت التاسعة ولها أتراب وصواحب تلعب معهن ، ولها أرجوحة تلعب عليها ، وقد حدثت السيدة كيف انتقلت من فوق الأرجوحة إلى بيت الزوجية : « فأتتني أم رومان ، وأنا على أرجوحة ، ومعي صواحبي ، فصرخَت بي فأتيتها ، ومأأدري ما تريد بي ، فأخذت بيدي فأوقفتني على الباب ، فقلت : هه هه حتى ذهب نَفَسي ، فأدخلتني بيتاً ، فإذا نسوة من الأنصار ، فقلن : على الخير والبركة وعلى خير طائر »[٢] .

ونظراً لحداثة سنها عندما تزوجت بقيت تلعب بعد زواجها لفترة من الزمن مع صواحبها ، وكان ﷺ يقدّر حداثة سنها وحاجتها إلى اللعب فكان يسرّب لها صواحباتها يلاعبنها ، وتحكي

---

(١) انظر الحديث كاملا في صحيح البخاري .

(٢) متفق عليه وسيأتي كاملا .

السيدة هذا فتقول : كنت ألعب بالبنات وأنا عند رسول الله ﷺ ، فكان يسرب إلي صواحباتي يلاعبنني[1] ويمكنها ﷺ من رؤية السودان وهم يلعبون بحرابهم في المسجد ؛ ولذلك كانت السيدة تنصح الآباء والأمهات بعد ذلك فتقول : « **فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو** »[2] ومع كل هذا كان لها لعب تلعب بها ، وتقول السيدة في هذا : كنت ألعب بالبنات ، فيجيء صواحبي فينقمعن من رسول الله ﷺ ، فيخرج رسول الله ﷺ فيدخلن علي ، وكان يسربهن فيلعبن معي[3] وقالت أيضاً : دخل علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب بالبنات ، فقال : « ما هذا يا عائشة ؟ » فقالت : **خيل سليمان ولها أجنحة** ، فضحك[4] .

هكذا كانت طفولة السيدة رضي الله عنها وصباها ، طفولتها في بيت الصدق ، وصباها في بيت النبوة .

الخطبة المباركة :

إن أعظم وأجمل ذكريات المرأة التي تصرّ قلبها عليها ، وتحن دائماً إليها ، ذكريات خطبتها السعيدة وزواجها الميمون ، وكلما

---

(١) أبو داود .

(٢) البخاري .

(٣ - ٤) النبلاء .

أحبت المرأة زوجها وسعدت به ، عظمت في نفسها هذه الذكريات ، ونزلت في قلبها وبين ضلوعها المنزل الأسمى والمكانة العظمى . ولقد أحبت السيدة زوجها أنبل حب وأعظمه وأشرفه ، وحُق لها ذلك ، فمن ذا الذي يُحب إن لم يحب ﷺ ، وظلت ذكريات خطبتها وأحاديث زواجها منطبعة على شغاف قلبها ، تنتشي دائماً بها ، وتستروح السعادة من أطيافها ، فكيف حدثت هذه الخطبة المباركة ؟

أول مراحل هذه الخطبة المباركة كانت وحياً من الله سبحانه ، أخبر عن هذا رسول الله ﷺ حينَ قال لعائشة : **« أريتك في المنام ثلاث ليال ، جاءني بك الملك في سَرَقة من حرير ، فيقول : هذه امرأتك ، فأكشف عن وجهكِ فإذا أنت هي ، فأقول : إن يكُ هذا من عند الله يمضه »**[1] وأخرج الترمذي عن السيدة أن جبريل جاء بصورتها في خرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال : **« هذه زوجتك في الدنيا والآخرة »** .

وبعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها الزوجة النبوية الأولى ، أمضى الله سبحانه هذه الخطبة المباركة ، وقد توفيت السيدة خديجة قبل الهجرة بثلاث سنين ، فلبث ﷺ سنتين أو قريباً من ذلك ، ونكح عائشة وهي بنت ست سنين[2] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) البخاري عن عروة بن الزبير . ونكح : أي عقد عقده عليها .

قالت عائشة : لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم فقالت : يا رسول الله ، ألا تتزوج ؟ قال : « ومن ؟ » قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً ، قال : « من البكر ومن الثيب ؟ » قالت : أما البكر فعائشة ابنة أحب خلق الله إليك ، وأما الثيب فسودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك ، قال : « اذكريهما عليّ » قالت : فأتيت أم رومان فقلت : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ قالت : ماذا ؟ قالت : رسول الله ﷺ يذكر عائشة ، قالت : انتظري فإن أبا بكر آتٍ ، فجاء أبو بكر فذكرت له ذلك ، فقال : أو تصلح له وهي ابنة أخيه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنا أخوه وهو أخي وابنته تصلح لي » فقام أبو بكر ، فقالت لي أم رومان : إن المطعم بن عدي كان قد ذكرها على ابنه ووالله ما أخلف وعداً قط ، قالت : فأتى أبو بكر المطعم ، قال : ما تقول في أمر هذه الجارية ؟ قال : فأقبل على امرأته ، فقال : ما تقولين ؟ فأقبلت على أبي بكر فقالت : لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليك تدخله في دينك ، فأقبل عليه أبو بكر فقال : ما تقول أنت ؟ قال : إنها لتقول ما تسمع ، فقام أبو بكر وليس في نفسه من الموعد شيء ، فقال لها : قولي لرسول الله ﷺ فليأت ، فجاء فملّكها ...[1] .

---

(١) النبلاء .

العروس المهاجرة :

لم تنتقل السيدة إلى بيت النبوة ، ولم يبن بهـا النبي ﷺ فور خطبتها ، ولعـل حداثة سنها وكثرة المصاعب التي واجهت النبي ﷺ قبل الهجرة ، ثم الهجرة وما ترتب عليها من جليل الأعمال وخطيرها ، كل ذلك شغل النبي ﷺ عن البناء بعروسه .

وهاجر ﷺ إلى المدينة وتخلفت السيدة مع من تخلف من آل النبي ﷺ وآل أبي بكر ، ولما استقر ﷺ بالمدينة أرسل من يأتي بأهله وبناته وأهل أبي بكر وأفراد أسرته رضي الله عنهم ، ووصفت السيدة طريق الهجرة قائلة :

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلـّفنا وخلـّف بناته ، فلما قدم المدينة بعث إلينا زيد بن حارثة وأبا رافع ، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم أخذها من أبي بكر ، يشتريان بها ما يحتاج إليه من الظـّهْر ، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط الليثي ببعيرين أو ثلاثة ، وكتب إلى ابنـه عبد الله يأمره أن يحمل أهله : أم رومان وأنا وأختي أسماء فخرجوا ، فلما انتهوا إلى قـُديد ، اشترى زيد بتلك الدراهم ثلاثة أبعرة ، ثم دخلوا مكة ، وصادفوا طلحة يريـد الهجرة بآل أبي بكر ، فخرجنا جميعاً ، وخرج زيد وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة وأم أيمن وأسامة ، فاصطحبنا جميعاً ، حتى إذا كنا بالبيض فقد بعيري ، وقدامي

محفة فيها أمي ، فجعلت أمي تقول : وابنتاه ، واعروساه ، حتى أدرك بعيرنا ، فقدمنا والمسجد يبنى[١] .

ويبدو أن السيدة تعرضت لخطر كبير أنقذتها منه عناية ربانية ، وفصَّلت ذلك في رواية ثانية فقالت : قدمنا مهاجرين ، فسلكنا في ثنية ضعينة — اسم مكان — فنفر جمل كنت عليه نفوراً منكراً ، فوالله ما أنسى قول أمي : يا عُريسة ، فركب بي رأسه ، فسمعت قائلاً يقول : ألقي خِطامه ، فألقيته ، فقام يستدير كأنما إنسان قائم تحته[٢] .

الزواج الميمون :

في السابع عشر من رمضان السنة الثانية من الهجرة وقعت معركة بدر ، وأعز الله نبيه ﷺ فمكنه من رؤوس المشركين في قريش ، فقتل من قتل منهم وأسر من أسر ، وكان يوم بدر من أيام الاسلام الكبرى ، وفرح النبي ﷺ بهذا النصر المؤزر وعمت الفرحة والحبور جميع المسلمين ، فكانت الأيام التي أعقبت يوم بدر أيام الفرح والسرور ، فوجد ﷺ في تلك الأيام وقتاً مناسباً للبناء بأحب أزواجه السيدة عائشة رضي الله عنها .

---

(١) النبلاء .

(٢) الطبراني ، وقال في مجمع الزوائد : إسناده حسن .

وهكذا شهد شهر شوال من هذه السنة زواج النبي ﷺ وانتقال السيدة إلى بيت النبوة ومهبط الوحي .

كان هذا الانتقال أعظم الأحداث في حياة السيدة رضي الله عنها ، ومن أجله أحبت السيدة شهر شوال ، ففيه أغلى الذكريات وأعزها : « تزوجني رسول الله ﷺ في شوال ، وبنى بي في شوال ، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني ، وكانت عائشة تستحب أن تُدخل نساءها في شوال[1] » وأصبح شوال في نظر السيدة شهر الخيرات والبركات والذكريات ...

الاستعداد للزفاف :

كانت المدينة المنورة أرضاً وبئة ، تأثر المهاجرون بمناخها هذا لما سكنوا فيها فمرض بعضهم ، لذلك دعا النبي ﷺ فقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها ، وبارك لنا في صاعها ومدها ، وانقل حمّاها فاجعلها بالجحفة[2] » فطيب الله سبحانه بعد ذلك مناخها حتى أصبحت أطيب بلاد الله ، وطهرها مما كان فيها ، وتأثرت السيدة بعد الهجرة بالمناخ الجديد الذي لم تألفه من قبل ، فمرضت شهراً فضعف جسدها وتساقط شعرها حتى أصبح جميمة[3] ، لا يتجاوز أذنيها ، ولما شفيت

---

(١) مسلم .

(٢) متفق عليه من حديث عائشة .

(٣) الجميمة : تصغير جمة وهي الشعر الساقط على المنكبين .

أخذت أمها تهيؤها للزواج ، وتعالجها ليقوى جسدها ويزول ضعفها ، حدثت السيدة عن هذا فقالت : كانت أمي تعالجني للسمنة ، تريد أن تدخلني على رسول الله ﷺ ، فما استقام لها ذلك حتى أكلت القثاء بالرّطب ، فسمنت كأحسن سِمنة[1] .

يوم الزفاف :

ظل هذا اليوم ماثلاً في قلب السيدة ، لايبرح عنه أبداً ، إذ هو أسعد أيام حياتها ، فلم تنس منه شيئاً ، حتى أنفاسها المتلاحقة وهي على باب الحجرة الشريفة ظلت تذكرها : « تزوجني رسول الله ﷺ لستّ سنين ، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين ، قالت : فقدمنا المدينة فوعكت شهراً ، فوفى شعري جميمةً ، فأتتني أم رومان ، وأنا على أرجوحة ومعي صواحبي ، فصرخت بي ، فأتيتها ، وماأدري ماتريد بي ، فأخذت بيدي ، فأوقفتني على الباب ، فقلت : هه ، هه ، حتى ذهب نَفَسي ، فأدخلتني بيتاً ، فإذا نسوة من الأنصار ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتني إليهن ، فغسلن رأسي وأصلحنني ، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى ، فأسلمنني إليه[2] » .

وأضافت السيدة في حديث آخر وصفاً لوليمة العرس فقالت :

---

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم .

لا والله ما نحرت عليّ من جزور ولا ذبحت من شاة ، ولكن جفنة كان يبعث بها سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ ، يجعلها إذ ذاك بين نسائه ، فقد علمت أنه بعث بها[1] ، وقدّم النبي ﷺ إلى ضيوفه اللبن مع الطعام ، قالت أسماء بنت يزيد الأنصارية : كنا فيمن جهز عائشة وزفها ، قالت : فعرض علينا النبي ﷺ لبناً ، فقلنا : لا نريده ، فقال النبي ﷺ : « لا تجمعن جوعاً وكذباً »[2] وزادت في حديث آخر : إني قينت — أي زينت — عائشة لرسول الله ﷺ ، ثم جئته فدعوته لجلوتها ، فجاء فجلس إلى جنبها ، فأتي بعُس لبن فشرب ثم ناولها النبي ﷺ ، فخفضت رأسها واستحيت ، قالت أسماء : فانتهرتها ، وقلت لها : خذي من يد النبي ﷺ ، قالت : فأخذت فشربت شيئاً ، ثم قال لها النبي ﷺ : « أعطي تربك »[3] .

مهر العروس :

والمهر حق شرعي في الاسلام للمرأة ، ألزم الله سبحانه الزوج أن يقدمه لزوجته تعبيراً عن تقديره لها : (وآتوا النساء صَدُقاتهن نِحْلَةً) وقدم النبي ﷺ للسيدة مهراً مقداره خمسمائة درهم ، صرحت بذلك السيدة نفسها عندما سألها أبو سلمة بن

(١) السمط الثمين .
(٢) رواه أحمد ٦/٤٥٩ .
(٣) رواه أحمد ٦/٤٥٨ .

عبد الرحمن : كم كان صداق رسول ﷺ ؟ قالت : كان صداقه لأزواجه ثنتي عشرة أوقية ونشاً ، قالت : أتدري ما النش ؟ قال : قلت : لا ، قالت : نصف أوقية ، فتلك خمسمائة درهم ، فهذا صداق رسول الله ﷺ لأزواجه[١] .

مهبط الوحي :

أسكن النبي ﷺ السيدة عائشة في حجرة ملاصقة للمسجد ، وهي واحدة من حجرات بناها ﷺ لنفسه ، عندما بنى المسجد بعد وصوله إلى المدينة المنورة .

وكان الداخل في المسجد النبوي على عهده عليه الصلاة والسلام يرى بيوتاً من جريد النخل ، مستورة بمسوح الشعر ، مصفوفة ، تسع حجرات في شرقي المسجد وشماليه وقبليه ، ولم يُبْن منها شيء جهة الغرب ، ويرى لحجرة عائشة مصراعاً واحداً من عرعر أو ساج [٢] ، وأبواب الحجرات التسعة شارعة إلى المسجد[٣] قال الحسن : « كنت أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي[٤] » وحينما أصدر الوليد بن عبد الملك

---

(١) رواه مسلم .
(٢) من أنواع الخشب .
(٣) الاسلام والمرأة .
(٤) الطبقات ٥٠٦/١ .

أمراً بإدخالها في المسجد قال سعيد بن المسيِّب : **« ليتها تركت فلم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء ، ويروا ما رضي الله لنبيه ومفاتيح خزائن الدنيا بيده »**[1] . ووصف عمران ابن أبي أنس الحجرات الشريفة فقال : « كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد النخل ، وكان خمسة أبيات من جريد مطينة لا حجر لها ، على أبوابها مسوح الشعر ، ذرعتُ الستر – ما تستر به – فوجدته ثلاثة أذرع في ذراع[2] » .

وضمت الحجرات إلى المسجد إلا حجرة السيدة ، فقد بقيت لأن فيها دفن النبي ﷺ وصاحباه ، ولا تزال إلى الآن ، في ظلال القبة الخضراء ، أُنساً لأرواح المؤمنين ، وسكناً لقلوب المشتاقين ، يسعون إليها من مشارق الأرض ومغاربها .

عرفت هذه الحجرة بـ (مهبط الوحي) ، لكثرة الوحي الذي هبط على النبي ﷺ فيها ، وكان بابها شارعاً إلى المسجد ، وكم جلس النبي ﷺ بقربه أثناء اعتكافه فيمد رأسه الشريف من خلاله إلى السيدة وهي في حجرتها لتغسله له ، قالت رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يخرج إلي رأسه من المسجد ، وهو مجاور ، فأغسله وأنا حائض » وفي رواية : فأرجّل رأسه[3] .

---

(١) عن كتاب « سعيد بن المسيب سيد التابعين » ، نشر دار القلم بدمشق .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) متفق عليه واللفظ لمسلم .

جهاز العروس :

وصفت السيدة جهاز حجرتها ، فقالت : « إنما كان فراش رسول الله ﷺ الذي ينـام عليه أدمـاً ، حشوه ليف »[1] ولم يكن لها غير فراش واحد في أول الأمر ، ودليل ذلك أن السيدة عندما سئلت : « أكان رسول الله ﷺ يضاجعك وأنت حائض ؟ قالت : نعم إذا شددت علي إزاري ، ولم يكن لنـا إذ ذاك إلا فراش واحد ، فلما رزقني الله عز وجل فراشاً آخر اعتزلت رسول الله ﷺ »[2] ، ومن خلال حديثها التـالي يظهر لنا أن هذا الفراش كان يرفع أحياناً فوق سرير ، فعندما ذكر لها ما يقطع الصلاة : الكلب والحمار والمرأة ، قالت :«لقد شبهتمونا بالحمير والكلاب ، والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلي وإني

---

(١) رواه مسلم ، وقد دل الحديث على أن فراشها ليف لاصوف ، فإذا ما أهدي لها فراش حشوه صوف رده صلى الله عليه وسلم ، فقد أخرج البيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت علي امرأة من الأنصـار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قطيفة مثنية ، فبعثت إلي بفراش حشوه الصوف ، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ماهذا ياعائشـة ؟ » قلت : يا رسول الله فلانة الأنصـارية دخلت فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلي بهذا ، فقال : « رديه يا عائشة ! فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة »(١) .

(١) حياة الصحابة ٢/ ٥٠١ .

(٢) رواه أحمد ٦/ ٩١ .

على السرير بينه وبين القبلة مضطجعة ، فتبدو لي الحاجة فأكره أن أجلس فأوذي رسول الله ﷺ فأنسلّ من عند رجليه »[١] .

وضمت السيدة بعد ذلك إلى أثاث حجرتها بعض الوسائد ، وقالت في خبر هذه الوسائد : كان في بيتي ثوب فيه تصاوير ، فجعلته إلى سهوة[٢] في البيت ، فكان رسول الله ﷺ يصلي إليه ، ثم قال : « يا عائشة أخّريه عني فنزعته فجعلته وسائد »[٣] .

ويبدو من هذا الحديث وغيره أن السيدة كانت تحرص على ترتيب حجرتها وتزيينها ، وفي كتب السنة عدد من الأحاديث تدل على حرصها على تزيين حجرتها ، منها قولها : كان لنا ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال لي رسول الله ﷺ : « حوّلي هذا فإني كلما دخلت فرأيته ذكرت الدنيا » وزاد في رواية : « إن أصحاب هذه الصور يعذبون يقال لهم : أحيوا ما خلقتم » « إن البيت الذي فيه الصور لا تدخله الملائكة » « إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين »[٤] .

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم وسيأتي مزيد شرح للحديث في بحث دفاعها عن المرأة .

(٢) المخدع والخزانة أو الطاقة أو الرف .

(٣) رواه مسلم والنسائي واللفظ له .

(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم .

ولم يكن في حجرة السيدة العروس مصباح تستضيء بـه ، دل على ذلك حديثها التالي :

« كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ، ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد غمزني ، فقبضت رجليّ ، فإذا قام بسطتهما ، قالت : والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح »[1] ولماذا لم يكن فيها مصابيح ؟ أجابت السيدة سائلها عن ذلك قائلةً : لو كان عندنا دهن مصباح لأكلناه[2] .

تلك هي الحجرة التي عاشت فيها السيدة قرابة خمسين عاماً ، ولم تُدخِل السيدة عليها أو على أثاثها أي تغيير ، سوى القبور الثلاثة التي دفن فيها النبي ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما .

معيشتها :

إذا كانت حجرة السيدة وأثاثها كما وصفنا ، فكيف كانت معيشة السيدة فيهـا ؟ وصفت السيدة لابن أختها عروة معيشة أمهات المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ فقالت : « ابن أختي إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيـات رسول الله ﷺ نار ؛ فقلت : يا خالة ما كان يعيشكم ؟ ! قالت : الأسودان : التمر والماء ، إلا

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه أحمد والطبراني واللفظ له .

أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم منائح ، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا [1] » .

ولما سئلت : « أنهى النبي ﷺ أن تؤكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث ؟ قالت : ما فعله إلا في عام جاع الناس فيه ، فأراد أن يطعم الغني الفقير ، وإن كنا لنرفع الكُراع فنأكله بعد خمس عشرة ، قيل : ما اضطركم إليه ؟ فضحكت وقالت : ما شبع آل محمد ﷺ من خبز بر مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق بالله » [2] .

وماذا كان في بيت النبي ﷺ عند وفاته ؟ قالت السيدة : « توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي ، فأكلت منه حتى طال علي ، فكِلْتُهُ ففَني » [3] . ووصف خادمه أنس معيشته عليه الصلاة والسلام فقال : مشيت إلى النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة سَنِخَةٍ [4] ، ولقد رُهن له درع عند يهودي بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله ، ولقد سمعته ذات يوم يقول : « ما أمسى عند آل محمد صاع من تمر ولا صاع حب » وإن عنده يومئذ لتسع نسوة [5] .

(١ - ٢ - ٣) رواه البخاري .

(٤) دهن مذاب متغير .

(٥) رواه الترمذي وأخرجه أيضاً البخاري .

وحملت شدة العيش أمهات المؤمنين أن يسألن رسول الله ﷺ توسيع النفقة عليهن ، فغضب عليه الصلاة والسلام منهن ، واعتزلهن في مشربة له — غرفة عالية — ثم أمره تبارك وتعالى أن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن — رضي الله عنهن وأرضاهن — الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

وبدأ — كما قالت السيدة — أول ما بدأ بها فقال ﷺ : « إني ذاكر لكِ أمراً فلا عليك ألا تعجَلي حتى تستأمري أبويك » قالت : قد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله عز وجل قال : (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلًا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) قالت : فقلت : في أي هذا أستأمر أبوي ؟ فإني **أريد الله ورسوله والدار الآخرة** ، قالت : ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت [1].

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم ، وانظر تفسير ابن كثير ٣/٤٨١ .

ومع شدة هذه الحياة وشظفها فقد كانت السيدة رضي الله عنها تبكي أسفاً على هذه الحياة مع النبي ﷺ وشوقاً إليها ، وتقول : ما شبعت بعد النبي ﷺ من طعام إلا ولو شئت أن أبكي لبكيت ، ما شبع آل محمد ﷺ حتى قبض[1] .

(١) حليه الأولياء ٢/٤٦ .

الفصل الثانى

في بيت النبوّة

- تمهيـــد
- خير الأزواج وألطفهم
- الحبيبة النبوية
- الزوجة المثاليــة
- المحنة الكبرى في حديث الإفك
- أمهات المؤمنين
- الزوجة الغيرى
- المرأة المجاهدة
- وداع الحبيب

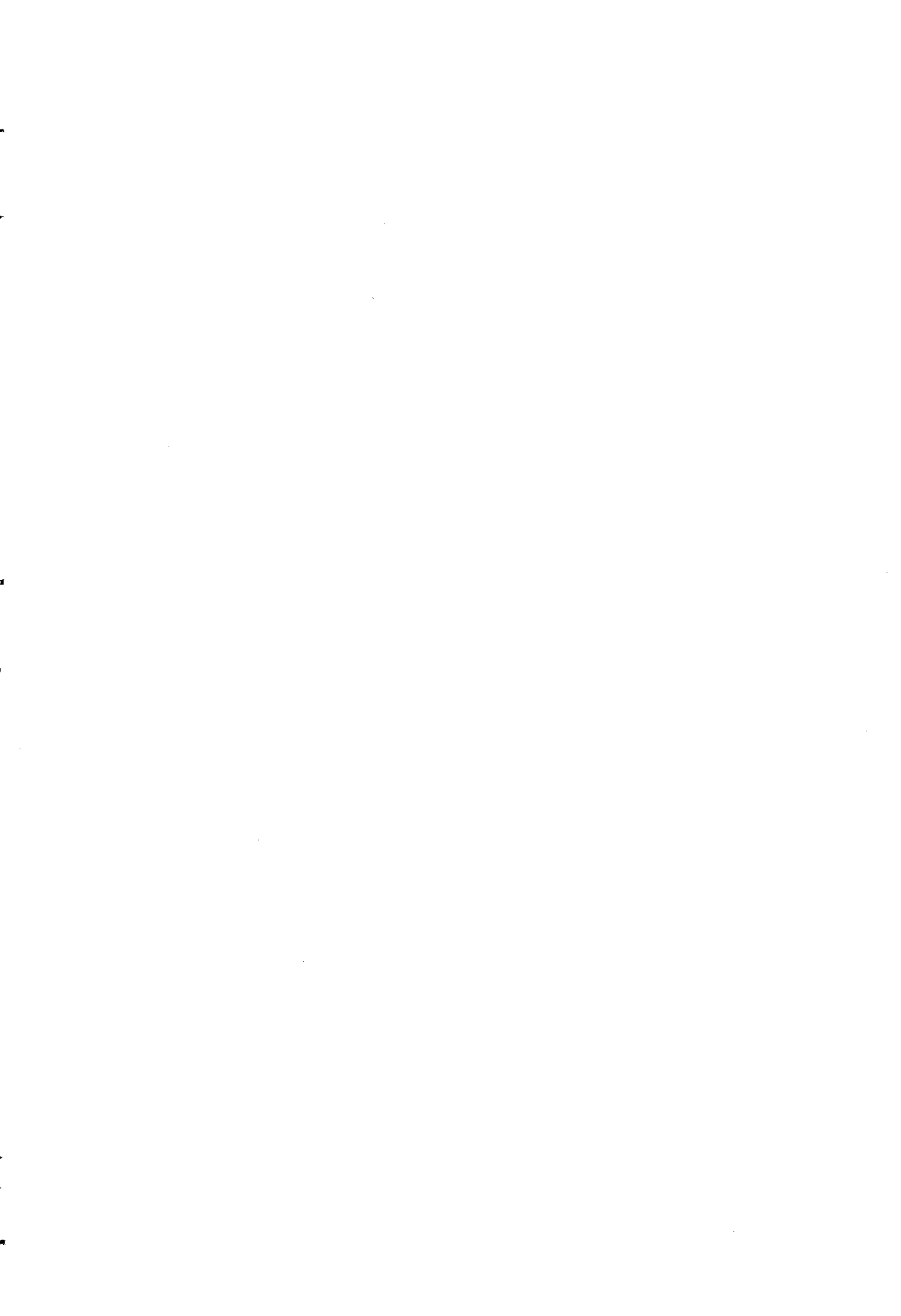

في بيت النبوة

تمهيد :

رفع الاسلام عن المرأة كل أنواع الظلم والاضطهاد التي كانت تعاني منها في الجاهلية ، وبوأها منزلة إنسانية رفيعة لاتدانيها أية منزلة بلغتها المرأة حتى الآن ، واهتمام النبي ﷺ بتكريم المرأة في جميع مراحل حياتها دليل واضح على ذلك .
فقد كرمها ﷺ بنتاً وأختاً فقال : « من عال ابنتين أو ثلاث بنات ، أو أختين أو ثلاث أخوات حتى يَمُتْنَ أو يموت عنهن ، كنت أنا وهو كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى[1] .
وكرمها زوجةً فقال : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي[2] » وبقوله أيضاً : « إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله »[3] وكرمها أماً فقال لمن أتى يسأله الجهاد معه : « ألك أم ؟ » قال : نعم ، قال : « إلزم رجلها فَثَمّ الجنة »[4] .

---

(١) رواه أحمد ، وأخرجه مسلم والترمذي أيضاً .
(٢) رواه الترمذي وحسنه .
(٣) رواه الترمذي وحسنه ، وهذان الحديثان من مسند عائشة .
(٤) رواه النسائي وابن ماجه والطبراني .

خير الأزواج وألطفهم :

حقاً كان ﷺ خير الأزواج وألطفهم بأهله ، ووصفت لنا السيدة عائشة في أحاديث كثيرة حسن معاملة النبي ﷺ لهن ولطفه بهن أجتزىء فيما يلي ببعضها :

١ — مر معنا كيف قدّر ﷺ حداثة سن السيدة وحاجتها إلى اللعب وكيف كان يسرّب إليها صواحبها يلاعبنها ، وأشرتُ إلى أنه كان يمكّنها أن تضع رأسها على كتفه الشريف وهي خلفه مستترة به ؛ لتنظر إلى الأحباش يلعبون بحرابهم في المسجد ، قالت السيدة : وكان يوم عيد ، يلعب فيه السودان بالدّرَق والحراب ، فإما سألتُ النبي ﷺ وإما قال : « تشتهين تنظرين ؟ » فقلت : نعم ، فأقامني وراءه ، خدي على خده ، وهو يقول : « دونكم يا بني أرْفِدةَ » حتى إذا مللت قال : « حسبك »[1] .

٢ — ومن لطفه ﷺ بهن أنه كان يمازحهن ويضاحكهن ، قالت عائشة : أتيت النبي ﷺ بحريرة قد طبختها له ، فقلت لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها : كلي ، فأبت ، فقلت : لتأكلين أو لألطخنّ وجهك ، فأبتْ ، فوضعتُ يدي في الحريرة فطليتُ وجهها ، فضحك النبي ﷺ ، فوضع يده لها وقال لها : « الطخي وجهها» فلطخت وجهي ، فضحك النبي ﷺ ، فمر عمر ، فقال : يا عبد الله ،

---

(١) متفق عليه ، واللفظ للبخاري ، وهو في مسند عائشة كاملا .

ياعبد الله ، فظن أنه سيدخل ، فقال : « قوما فاغسلا وجوهكما » قالت عائشة : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ[1] .

٣ – ويساعدهن ﷺ أحياناً في مهنة البيت ، سأل الأسود ابن يزيد السيدة : ما كان النبي ﷺ يصنع في البيت ؟ فقالت : كان في مهنة أهله ، فإذا سمع الأذان خرج إلى الصلاة[2] .

٤ – ويسمُر معهن مستمعاً إلى أحاديثهن ، وحفِظَت لنا كتب السنة شيئاً من هذا السّمر الشائق ، فانظر مثلاً إلى تحديث السيدة عائشة النبي ﷺ حديث أم زرع ، وقول النبي ﷺ لها بعده : « كنت لك كأبي زرع لأم زرع ؛ إلا أنه طلقها وإني لا أطلقك »[3] .

٥ – وما كان ﷺ يعنفهن أو يشتد عليهن بل كان بهن رحيماً رفيقاً ، وبهذا قالت السيدة : ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً ، إلا أن يجاهد في سبيل . . .[4]

---

(١) رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح خلا محمد بن عمرو ، وحديثه حسن كما في مجمع الزوائد .
(٢) رواه البخاري .
(٣) انظره في الصحيحين والنسائي والطبراني ، وهو أيضاً بطوله في مسند عائشة .
(٤) مسلم ، وهو بكامله في مسند عائشة .

ويترضاهن إذا غضبن ، أخرج الذهبي في النبلاء عن النعمان بن بشير قال : استأذن أبو بكر على النبي ﷺ فإذا عائشة ترفع صوتها عليه ، فقال : « يا بنت فلانة ترفعين صوتك على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ » فحال النبي ﷺ بينه وبينها ، ثم خرج أبو بكر ، فجعل النبي ﷺ يترضاها ، وقال : « ألم تريني حلت بين الرجل وبينك ؟ » ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى فسمع تضاحكهما فقال : أشركاني في سلمكما كما أشركتماني في حربكما[1] .

٦ – ويسوّي بينهن في المعاملة ، حتى إنه ليقرع بينهن إذا أراد سفراً ليختار التي تصحبه منهن ، ويقسم بينهن بالعدل ، ويقول : « اللهم هذه قسمتي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »[2] – يعني الحب – .

هذه المعاملة الكريمة التي لقيتها أمهات المؤمنين من النبي ﷺ أصبحت مضرب المثل ، وكن يراجعنه في كثير من أموره ، حتى صرن قدوة يقتدي بها بقية النساء ، فإذا أنكر زوج حق زوجته في مراجعته احتجت عليه بعمل الرسول ﷺ فأسكتته ،

---

(١) رواه أبو داود والنسائي .

(٢) رواه أصحاب السنن من حديث عائشة .

ومـا أطرف حديث عمر بن الخطاب يقص فيه ما جرى معهن ، ويصف هزيمته وكيف انكسر لهن على رغم شدتـه ، قـال : والله إن كنا في الجاهلية مانعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل ، وقسم لهن ما قسم ، فبينا أنا في أمر آتمره إذ قالت لي امرأتي : لو صنعت كذا وكذا ، فقلت لهـا : ومالك أنت ولما هنا ؟ وما تكلفك في أمر أريده ؟ فقالت لي : عجباً لك يابن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت وإن ابنتك - تعني السيدة حفصة أم المؤمنين - لتراجع رسول الله حتى يظل يومه غضبان ! ! . قال عمر : فآخذ ردائي ثم أخرج مكاني حتى أدخل على حفصة ، فقلت لهـا : يابنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنا لنراجعـه ، فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ، ثم خرجت حتى أدخل على أم سلمة لقرابتي منها فكلمتها ، فقالت لي : عجباً لك يابن الخطاب ، قد دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله وأزواجه ، فأخذتني أخذاً كسرتني به عن بعض مـا كنت أجد ، فخرجت من عندها .[1]

الحبيبة النبوية :

لم يستطع النبي ﷺ أن يسوي بين زوجاته بالمودة والمحبة ،

---

(١) الاسلام والمرأة عن السمط الثمين .

لأن ذلك منوط بالقلب ، ولاسلطان للانسان على قلبه ، وإلى هذه الحقيقة أشارت الآية القرآنية (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) الآية[1] ، وذلك أيضاً مراد الآية الكريمة (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) الآية[2] .

وقد احتلت السيدة عائشة في قلب النبي ﷺ منزلة في المحبة رفيعة لم يصل إليها غيرها من أمهات المؤمنين . وعرف الصحابة للسيدة هذه المنزلة ، فأقروا لها بها ، ففي سنن الترمذي أن رجلاً نال من عائشة عند عمار بن ياسر فقال له : « اغرب مقبوحاً منبوحاً ، أتؤذي حبيبة رسول الله » .

وقال أنس بن مالك : « أول حب كان في الاسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها[3] » ولذلك كانوا ينتظرون يوم عائشة ليقدموا للنبي ﷺ هداياهم وهو عندها ، حتى أثار ذلك غيرة أمهات المؤمنين ، قالت عائشة : « كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة ، فقلن : يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ، وإنا نريد الخير كما تريد عائشة ، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٢٩ من سورة النساء .
(٣) حلية الأولياء ٢/٤٤ .

يهدوا إليه حيث ما كان ، أو حيث مادار ، قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ ، قالت : فأعرض عني ، فلما عاد إليّ ذكرت له ذاك ، فأعرض عني ، فلما كان في الثالثة ذكرت له ، فقال : **يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها »**[1] .

وكثيراً ما كانت السيدة تسأله : كيف حبك لي ؟ فيقول : « كعقدة الحبل » فكنت أقول : كيف العقدة يا رسول الله ؟ فيقول : « هي على حالها »[2] وسيأتي قريباً قوله ﷺ للسيدة فاطمة رضي الله عنها : **« أي بنية ألست تحبين ما أحب ؟ »** فقالت : بلى ، قال : **« فأحبي هذه »** ـ مشيراً لعائشة ـ ولما سأله عمرو بن العاص : من أحب الناس إليك ؟ قال : **« عائشة »** ، قال : ومن الرجال ؟ قال : **« أبوها »**[3] .

وقد اعترفت أمهات المؤمنين للسيدة بهذه المكانة العالية ، رغم مشاعر الغيرة ، قالت أم سلمة لما بلغها موت السيدة عائشة : **والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ إلا أباها**[4] . ولما

---

(١) رواه البخاري .

(٢) حلية الأولياء ٢/٤٤ .

(٣) متفق عليه .

(٤) سير أعلام النبلاء .

كبرت سودة بنت زمعة أم المؤمنين رضي الله عنها جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة [1] . وكن يسترضينه إذا غضب على واحدة منهن بواسطة عائشة ، أخرج ابن ماجه عن عائشة أن رسول الله ﷺ وجد على صفية بنت حيي في شيء ، فقالت صفية : يا عائشة هل لك أن ترضي رسول الله ﷺ ولك يومي ؟ قالت : نعم ، فأخذت خماراً لها مصبوغاً بزعفران ، فرشته بالماء ليفوح ريحه ، ثم قعدت إلى جنب رسول الله ﷺ فقال النبي ﷺ : « يا عائشة إليك عني إنه ليس يومك » فقالت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ؛ فأخبرته بالأمر ، فرضي عنها [2] .

وعرف للسيدة هذه المكانة أيضاً كبار العلماء من التابعين ، فقد كان مسروق إذا حدث عنها قال : **حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله ، المبرأة من السماء** [3] .

وظلت السيدة الزوجة الأثيرة في قلب رسول الله ﷺ إلى أن توفي ، وسيمر معنا كيف استأذن ﷺ أزواجه عندما مرض أن يأذنّ له ليمرّض في بيت السيدة عائشة فأذنّ له ، ونالت السيدة بهذا جملة من المناقب لم ينلها غيرها وكانت تتحدث

---

(١) انظر الحديث في الصحيحين .
(٢) في إسناده سمية المصرية ، وهي لا تُعرف .
(٣) الإجابة .

بهذه النعم الجليلة فتقول : **إن من نعم الله عليَّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وبين سحري ونحري**[1] .

الزوجة المثالية :

خص الله السيدة عائشة بكثير من الفضائل والمزايا حتى نالت عند رسول الله ﷺ المنزلة الرفيعة التي سبق الحديث عنها ، وأذكر فيما يلي بعض فضائلها رضي الله عنها :

١ – هي بنت الصدّيق أعز أصحاب النبي ﷺ في الجاهلية والاسلام ، وكثيراً ما كان ﷺ يناديها : يا بنت الصدّيق ، يا بنت أبي بكر ، وفي بعض الأحاديث نوّه بحبها لكونها بنت أبي بكر ، وسيمر معنا قوله ﷺ : **« إنها ابنة أبي بكر »** .

٢ – اهتم الوحي بها كثيراً ، ومر معنا أن الوحي نزل بصورتها على النبي ﷺ ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ... إنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها » وسلام جبريل عليها وإخباره ﷺ لها بذلك فقالت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى مالا أرى[2] . كما أنها رأت جبريل عندما نزل على النبي ﷺ بعد غزوة الخندق يأمره بالتوجه إلى يهود

---

(١) أي مات وهو مستند إلى صدرها .
(٢) متفق عليه .

قريظة[1] وسيمر معنا في البحث القادم نزول براءتها بآيات قرآنية كريمة ، وبسببها نزلت آية التيمم لما انقطع عقدها وأقام عليه الصلاة والسلام مع الناس على التماسه وليسوا على ماء ، فأنزل الله آية التيمم ، فتيمموا ، وقال أُسيد بن حضير : ماهي بأول بركتكم يا آل أبي بكر[2] .

٣ – وهي البكر الوحيدة التي تزوجها النبي ﷺ وأصغر أمهات المؤمنين سناً ، وقد كانت تفتخر بهذا وتدل أحياناً به إدلال الحبيب أمام النبي ﷺ فتقول له : **أرأيت لو نزلتَ وادياً ، وفيه شجرة قد أُكل منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت تُرتع بعيرك ؟ قال : « في الذي لم يُرتعَ منها » تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها**[3] .

٤ – يضاف إلى ذلك كله ذوقها الرفيع وأدبها البديع ، وفصاحة لسانها وعلو بيانها ، وسيمر معنا تفصيل ذلك ، وكانت في حديثها مع النبي ﷺ تزداد ذوقاً وأدباً وبياناً ، انظر مثلاً جوابها النفيس للنبي ﷺ عندما قال لها في حديث أم زرع : « كنت لك كأبي زرع لأم زرع . . » قالت السيدة : يارسول الله **بل أنت خير من أبي زرع** . وتأمل حسن منطقها وعلو ذوقها

---

(١) السمط الثمين .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه البخاري .

في الحديث التالي : عن عائشة قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « إني لأعلم إذا كنتِ عني راضية وإذا كنتِ علي غضبى » قالت : فقلت : من أين تعرف ذلك ؟ فقال : « أما إذا كنت عني راضيـة ، فإنك تقولين : لاورب محمد ، وإذا كنت غضبى قلت : لا ورب إبراهيم » قالت قلت : أجل والله يارسول الله ما أهجر إلا اسمك[1] . لذلك كان ﷺ يحب محادثتها حتى في السفر ، فإذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث[2] .

٥ ـ وفوق كل ذلك حرصها على أن تظهر أمامه ﷺ بأجمل مظهر وأكمله ، فالسيدة خير مثال للزوجة الصالحة التي وصفها النبي ﷺ بقوله : **« الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنا حفظته في نفسها وماله[3] »** . فلقد كانت شديدة الحرص على ألا يرى منهـا النبي ﷺ إلا ما يسره ، كثيرة الاهتمام بمظهرها وزينتها ، وفي الحديث التالي من أحاديثها دلالة على ذلك ، قالت : دخل علي رسول الله ﷺ فرأى في يدي فتخات من ورِق[4] ، فقال : « ما هذا يا عائشة ؟ » فقلت : صنعتهن أتزين لك يا رسول الله ،

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري وسيأتي كاملا .

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره .

(٤) خواتيم كبيرة من فضة .

قال : « أتؤدين زكاتهن ؟ » قلت : لا ، أو ما شاء الله ، قال : « هو حسبك من النار »[1] .

وكانت تنصح النساء أن يتزين لأزواجهن ، قالت لإحداهن : إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتضعيها أحسن مما هما فافعلي[2] .

وسألتها امرأة قائلة : إن في وجهي شعرات أفأنتفهن أتزين بذلك لزوجي ؟ فقالت عائشة : أميطي عنك الأذى وتصنّعي لزوجك كما تصنّعين للزيارة ، وإذا أمرك فلتطيعيه ، وإذا أقسم عليك فأبريه ، ولا تأذني في بيته لمن يكره[3].

وقد مر معنا حرص السيدة على تزيين حجرتها أيضاً ، ويبدو أنها اشتهرت بين نساء المدينة بحبها للزينة وذوقها الرفيع فيها ، لذلك كان نساء المدينة يستعرن بعض ثيابها ليلبسنها عرائسهن ليلة زفافهن ، يدل على ذلك أنه لما رفضت جاريتها أن تلبس ثوباً من ثيابها قالت السيدة : كان لي منهن درع على عهد

---

(١) رواه أبو داود .

(٢) سير أعلام النبلاء .

(٣) المصنف : ٣-١٤٦ . وهذا لا يتعارض مع الحديث الصحيح =

رسول الله ﷺ ، فما كانت امرأة تُقَيَّنُ – تزين لزفافها – بالمدينة إلا أرسلت إلي تستعيره[1] .

المحنة الكبرى :

لم يعكر صفاء علاقة السيدة بالنبي ﷺ شيء طيلة حياتها في كنفه سوى محنة السيدة في حادث الإفك ، فقد كان هذا الحادث سحابة سوداء مرت في حياة السيدة ، وامتحنت فيها محنة من أشد المحن وأقساها ، ولكن عناية الله أدركتها فبددت هذه السحابة ، وأعادت إلى بيت النبوة ومهبط الوحي صفاءه وسناءه ، وضمت إلى مناقب السيدة مناقب جديدة ، تتلألأ في عقد مناقبها وفضائلها آيات من التنزيل الحكيم يتلوها المؤمنون في محاريبهم وصلواتهم إلى يوم الدين .

= الذي روته السيدة بقولها : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والمستوصلة ، والنامصة والمتنمصة » ومن المعلوم أن النامصة التي تزيل شعر وجهها بالمنقاش ، وكلام السيدة يحمل على التزين بغير ذلك ، وقد أجاز الفقهاء للمرأة الحف والتحمير والنقش والتطريف إذا كان بإذن الزوج ؛ لأنه من الزينة ، وقد قال النووي : « يجوز التزين بما ذكر إلا الحف فإنه من جملة النماص . بل إن الحنابلة ذهبوا إلى جواز النماص إذا لم يكن شعاراً خاصاً بالفاسقات ، وفي رواية يجوز بإذن الزوج إلا إن وقع به تدليس فيحرم ، وحملوا النهي الوارد في الحديث على الكراهة التنزيهية ». انظر فتح الباري ٣١٨/١٠ .

(١) رواه البخاري .

نشأت هذه السحابة السوداء من القلوب المنافقة الحاقدة التي ما تركت فرصة تؤذي فيها رسول الله ﷺ إلا انتهزتها ، فإن لم تجد الفرصة المناسبة لتوجيه سمومها وكيدها ، لم تأل خبالاً وكيداً ومكراً ، ولكن العناية الإلهية التي حفت بالنبي ﷺ كانت بالمرصاد لأولئك الحاقدين تدفع كيدهم وتحبط مكرهم ، وإذا به خزي وعار يجللهم إلى يوم الدين .

تحدثت السيدة عن هذه المحنة فقالت : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه ، فأقرع بيننا في غزوة غزاها [١] ، فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ ، بعد ما نزل الحجاب ، فأنا أُحمل في هودجي وأُنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين ، آذن [٢] ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي ، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع ، فالتمست عقدي ، وحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي ، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت ، وهم يحسبون

(١) هي غزوة بني المصطلق .
(٢) آذن : أعلم .

أني فيـه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم ، إنما تأكل العُلقة من الطعام - قليـل الطعام - فـلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمـل وساروا ، فوجدت عقدي بعدمـا استمر الجيش فجئت منازلهم ، وليس بها داع ولا مجيب ، فأممت منزلي الذي كنت بـه ، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي ، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش ، فأدلج فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتاني فعرفني حين رآني ، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه [1] حين عرفني ، فخمرت وجهي بجلبابي ، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منـه كلمة غير استرجاعـه ، حتى أناخ راحلته فوطىء على يديهـا فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا موعزين في نحر الظهيرة ، فهلك من هلك ، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول .

فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهـراً ، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ، لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنما يدخل علي رسول الله ﷺ

---

(١) أي بقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون .

فيسلّم ثم يقول : « كيف تيكم ؟ » ثم ينصرف ، فذاك الذي يريبني ولا أشعر ، حتى خرجت بعدما نقهت ، فخرجت معي أم مِسْطح قِبَل المناصع ، وهو متبرّزنا ، وكنا لانخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنُفَ قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأوَل في التبرز قِبل الغائط ، فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، ... فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح في مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ماقلت ، أتسبين رجلاً شهد بدراً ! قالت : أي هنتاه أولم تسمعي ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي .

فلما رجعت إلى بيتي ، ودخل علي رسول الله ﷺ ثم قال : « كيف تيكم ؟ » فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما ، قالت : فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت أبوي فقلت لأمي : يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية هوني عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا كثرن عليها ، فقلت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ! قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي .

فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد

– رضي الله عنهما – حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله ، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود ، فقال : يارسول الله أهلك وما نعلم إلا خيراً ، وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : « أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك ؟ » قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبي بن سلول ، فقال وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي ؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي » فقام سعد بن معاذ الأنصاري ، فقال : يارسول الله أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد : كذبت لعمر الله لاتقتله ولاتقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير ، وهو ابن عم سعد ، فقال لسعد ابن عبادة : كذبت لعمر الله فإنك منافق تجادل عن المنافقين ،

فتثاور الحيّان : الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

فمكثت يومي ذلك لايرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي ، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع ، يظنان أن البكاء فالق كبدي ، فبينما هما جالسان عندي ، وأنا أبكي ، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها ، فجلست تبكي معي ، فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً لايوحى إليه في شأني ، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا ؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت ذنباً فاستغفري الله وتوبي إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه » فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أُحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال ، قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبي رسول الله ﷺ ، قالت : ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت : — وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن — : **إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به ، فلئن قلت لكم إني بريئة — والله يعلم**

أني بريئة - لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقنّي ، والله ماأجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف قال : [فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون] .

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، وأنا حينئذ أعلم أني بريئة ، وأن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ، قالت : فوالله ما دام رسول الله ﷺ ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتى أُنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجُمان من العرق ، وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي ينزل عليه ، فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها : **يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك** » فقالت أمي : قومي إليه ، فقلت : والله لاأقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله عز وجل ، وأنزل الله (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه . . .) العشر الآيات كلها[1] ، فلما أنزل الله هذا في براءتي ، قال أبو بكر

(١) هي الآيات ١١ حتى ٢٠ من سورة النور .

الصديق رضي الله عنه – وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره – والله لاأنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله : (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم)[1] قال أبو بكر : **بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي** ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه . وقال : **والله لا أنزعها منه أبداً** ، قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال : « يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ » فقالت : **يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ، ما علمت إلا خيراً** ، قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ ، **فعصمها الله بالورع** ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[2] .

هكذا خرجت السيدة من محنتها بشهادة ربانية ببراءتها وطهرها وطيبها ، شهادة لا تمحوها الأيام ولا تخلقها الأعوام ، مما زاد في مكانتها في قلب رسول الله ﷺ ، وأعلى من مقامها في نفسه وفي نفوس المؤمنين إلى يوم الدين .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة النور .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري .

موقف المستشرقين من حديث الإفك :

عرض الأستاذ العقاد – رحمه الله – في كتابه الصديقة بنت الصديق موقف المستشرقين من حديث الإفك ، فأفاد وأجاد في الرد على الذين لايزالون يجزمون بصحة حديث الإفك أو لا يقطعون بنفيه ، فقال :

وإن غرض ابن سلول هـذا لهو بعينـه غرض كل متشبث بحديث الإفك إلى يومنا هذا ، ليتخذ منـه سبيلًا إلى الطعن في الاسلام ونبي الاسلام ، وبخاصة بين المبشرين من المستشرقين .

فمن هؤلاء من غلب عليه أدب التوبية فاستبعد حديث الإفك كما فعل موير Muir حيث قال بعد الإشارة إليـه : إن سيرة عائشة قبـل الحادث وبعده لتوجب علينـا أن نعتقد براءتها من التهمة .

ومنهم من نقل الحكاية وخلطها بالمعجزات التي لا يصدقها غير المسلم ، كما فعل واشنطن ارفنج في سيرة النبي عليه السلام ، فلم يقطع بنفي صريح وترك الباب مفتوحاً للأقاويل .

ومنهم من جاوز الحقيقة في وصف ما جاءت به الروايات ، فزعم أن السيدة عائشة ابتعدت عن النبي يوماً كاملًا قضته في صحبة صفوان ، خلافاً لما جاء في كل قصة نقلت إلينـا عن

حديث الإفك ، ونعني بـه روديل Rodwell صاحب ترجمة القرآن[1] حيث عرض لهذا الحديث في حاشيـة من حواشيه على سورة النور .

وهؤلاء مع هذا هم أشد المستشرقين تقية وحذراً في تعرضهم لهذا الحديث .

لكن المبشرين المحترفين لم يتقوا هذه التقية ، ولم يحـذروا هذا الحذر بل جزموا بصحة الحديث ، وقال بعضهم : إن محمداً استنزل الآيات في سورة النور ليحمي سمعـــة زوجته ، ويدين الوشاة بالعقاب الذي ورد في تلك السورة .

وجهلهم القرآن هو الذي أوقعهم في تلك الفرية الوضيعة التي يتخبطون فيها على غير علم بمصادرها ومواردها . . . ومن الإسفاف أن نتتبع هؤلاء الوشاة في كل ما خبطوا فيه من إثم وكلما رجموا به من ظن ، كأن أخلاق الناس وحقائق التاريـخ رهن بمـا يتمحلونه ووقف على ما يختلقونه ، وما كانت وشاياتهم تلك بحثاً يستند إلى رأي ، أو ظناً يعتمد على قرينة ، ولكنها كانت كذباً لايليق بالمؤرخ وسوء نية لا يليق بالانسان ، وخسة في حـق امرأة شريفة لا تليق بالرجل الكريم .

---

(١) الأولى أن نقول : صاحب ترجمة معاني القرآن .

وإنما أومأنا إلى ضروب من تلك الوشايات ؛ لنعلم أن الحذر واجب هنا على قدر ضخامة الأغراض التي تخلق الوشاية ، وتنطلق في ترويجها إلى أيامنا هذه ، وإلى ما بعد هذه الأيام ، مادام في الدنيا أناس يستبيحون أن يجترئوا بالشبهـــات على امرأة لاذنب لها إلا أنها زوج نبي يريدون التشكيك فيه .

وعلى الذي يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها لأنها تفتقر إلى كل دليل ، والأدلة على ما يناقضها كثير . عليه أن يصدق أن صفوان بن المعطل كان رجلًا لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الاسلام، وأن يصدق أن السيدة عائشة كانت - وهي زوج النبي - لا تؤمن به ولا تعمل بدينه ، ولا دليل على هذا ولا ذاك ، بل الأدلة على إيمان صفوان وإيمان عائشة تجري في كل سياق وردت لهما سيرة فيه . . . ومن هي تلك الزوجة بعد هذا ؟ هي بنت الصديق الذي لم يوصم بيته بوصمة في الجاهلية - كما قال - حتى يوصم بهذه الوصمة الكبرى في الاسلام ومع نبي الاسلام .

إن أقوى الأدلة لايحسم الشك هنـا فضلًا عن تلك الوشاية الواهية ، ويبقى على من يقبلها أن يسأل نفسه بعد هذا : كيف نشأت علاقة صفوان المزعومة ؟ أفي تلك الليلة بعينها ؟ فكيف اجترأ الرجل على مفاتحة أم المؤمنين ، وهم يتهيبون المناداة عليها

في هودجها ؟ بل كيف تخطر له هذه المفاتحة ، وهو لايشك في إيمانها بزوجها وليس له علم قبل ذلك بخبيئة صدرها ؟ وإذا اجترأ هذا الاجتراء هوساً منه فكيف يصدق العقل أن امرأة النبي وبنت الصديق تكون هكذا لقطة لأول لاقط يصادفها ؟ إن التي تكون كذلك لا يخفى سرها حتى يكشفه حديث الإفك ويقتصر الحديث فيه على صفوان .

كل ذلك سخف لايقبله إلا من يفتري بوشاية أو بغير وشاية ، وسواء فيه منافقو المدينة ومن يصنع صنيعهم من المؤرخين في العصر الحاضر ؛ لأنهم لا يؤمنون بنبي الاسلام ، بل هؤلاء أنذل وأغفل [١] .

وهذا المعنى الذي ذهب إليه العقاد في تكذيب الخبر وبيان اختلاقه دون اعتماد على وحي السماء ليقبله صاحب الدين ومن لا يأخذ بدين من الأديان ، ذهب إليه من قبل الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري حين قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال : نعم وذلك الكذب ، كنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله ما كنت لأفعله قال : فعائشة والله خير منك [٢] .

---

(١) الصديقة بنت الصديق باختصار .

(٢) تفسير ابن كثير .

أمهات المؤمنين :

نشأ ﷺ مبرءاً من العيوب ، معصوماً من الذنوب ، مبتعداً عن ضلالات الشرك وتقاليد الجاهلية ، ولما بلغ الخامسة والعشرين تزوج السيدة خديجة رضي الله عنها ، وقد بلغت حينئذ سن الأربعين ، وتزوجت من قبله مرتين ، وبقي معها قرابة خمس وعشرين سنة ، ولم يتزوج خلالها غيرها ، ولما قام بأعباء الدعوة إلى الله وضاق بها المشركون ، عرضوا عليه العروض الكثيرة على أن يترك هذه الدعوة ، ومن جملة هذه العروض أن يزوجوه أجمل نساء العرب ، فأبى عليه الصلاة والسلام كل الإباء ، وبقي مع السيدة خديجة حتى توفيت .

وبعد وفاتها تزوج الأمهات الطاهرات رضي الله عنهن ، وكلهن ثيبات ، تجاوزن سن الصبا عدا السيدة عائشة ، وهن إما امرأةُ مجاهد سقط شهيداً فأراد ﷺ تطييب خاطرها وجبر كسرها ، وإما مهاجرة هجرت وطنها وأهلها فراراً بدينها إلى الحبشة ، وهناك فجعت بزوجها ، فواساها ﷺ في غربتها وأرسل يخطبها حتى لاتعود إلى أهلها فتفتن عن دينها ، وإما بنت شيخ قبيلة يسعى ﷺ لربط الأواصر بها تأليفاً لها ، وإما امرأة زوّجه الله إياها تشريعاً لحكم وهدماً لعادة جاهلية ، فكان جملة من تزوج بهن وأكرمهن الله به عليه الصلاة والسلام إحدى عشرة : اثنتان

توفيتا في حياته وهما : السيدة خديجة والسيدة زينب بنت خزيمة ، والتسع البواقي توفي عنهن ، ومسألة عدد زوجاته عليه الصلاة والسلام من خصائصه الشريفة التي خصه الله بها لمقام النبوة والرسالة الذي اصطفاه الله له .

وكان زواجه ﷺ خيراً على الاسلام ودعوته ، في حياته وبعد وفاته ، ففي حياته كان سبباً لنشر دين الله بين القبائل التي أكرمها الله بمصاهرة النبي ﷺ ، انظر مثلاً إلى نتائج زواجه عليه الصلاة والسلام من السيدة جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق ، قالت السيدة عائشة : لما تسامع — أي الناس — أن رسول الله ﷺ تزوج جويرية ، أرسلوا ما في أيديهم من السبي ، فأعتقوهم وقالوا : أصهار رسول الله ﷺ ، **فما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها ، أُعتق في سببها مائة أهل بيت من بني المصطلق**[1] .

وظهر بعد وفاته ﷺ فضل أمهات المؤمنين في حفظ السنة وتعليمها ونشرها بين الناس ، وبخاصة سنته عليه الصلاة والسلام في بيته التي لم يطلع عليها في الأغلب أحد سوى أمهات المؤمنين رضي الله عنهن ، فكانت حجراتهن مدارس أسسها ﷺ لأمته لنشر العلم والسنة ، وهذا من حكمة الله

(١) سنن أبي داود .

ورحمته بهـذه الأمة ، إذ جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة خمسين سنـة ، تنشر تفاصيلها للناس كأن الوحي لم ينقطع ، وكأنهم من أنواره في شمس لا يلم بها أفول[1] ، وسنرى عندما نتحدث عن علم السيدة الدور الكبير الذي قامت به رضي الله عنها في هذا المجال .

الزوجة الغيرى :

ورغم المعاملة الطيبة التي حظي بها أمهات المؤمنين عند النبي ﷺ ، ورغم لطفه بهن وحرصه الشديد على التسوية بينهن في المعاملة [2] ، فقد أدركهن ما يدرك كل امرأة لها ضرائر من الغَيْرة والمنافسة ، حتى تحزّبن فيما بينهن ، قالت السيـدة : « إن نساء النبي ﷺ كنّ حزبين ، أنا وسودة وحفصة وصفية في حزب ، وزينب بنت جحش وأم سلمة والباقيات في حزب آخر »[3] فكيف واجه ﷺ غيرتهن وتنافسهن ؟ وقف ﷺ من هذا الأمر موقفاً يدل على عظيم حكمته وعمق إدراكه لواقع النفس الانسانية وما جبلت عليه ، فلم يفاجأ ﷺ بما حصل منهن ، وكأنه كان منتظراً حدوثه ومتوقعاً وقوعه ، فواجهه ﷺ باعتباره واقعاً لابد منه

---

(١) انظر الاسلام والمرأة .

(٢) انظر ما سبق بيانه في بحث خير الأزواج وألطفهم .

(٣) رواه البخاري .

وأمراً طبيعياً لا يستغرب حدوثه ، وقدر عليه الصلاة والسلام مشاعر أمهات المؤمنين وأحاسيسهن ، فلم يشتد عليهن بلوم أو تعنيف ، بل كان يدفع عنهن لوم الأولياء وغضب الآباء إذا ما تعرضن لغضبهم أو لومهم .

انظر إلى موقفه عليه الصلاة والسلام في الحادث الذي تصفه لنا السيدة عائشة فتقول : كان متاعي فيه خفٌ ، وكان على جمل ناج ، وكان متاع صفية فيه ثقلٌ ، وكان على جمل ثقالٍ بطيء يبطىء بالركب ، فقال رسول الله ﷺ : « حولوا متاع عائشة على جمل صفية ، وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب » فلما رأيت ذلك قلتُ : يالَعبادَ الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ !! فقال رسول الله ﷺ : « **يا أم عبد الله ، إن متاعك كان فيه ِخف ، وكان متاع صفية فيه ثقل ، فأبطأ بالركب فحولنا متاعها على بعيرك وحولنا متاعك على بعيرها** » فقلت : ألست تزعم أنك رسول الله ﷺ ؟ قالت : فتبسم فقال : « أو في شك أنت يا أم عبد الله ؟ » قلت : ألست تزعم أنك رسول الله ، فهلاّ عدلت ، وسمعني أبو بكر ، وكان فيه َغربٌ – أي حدة – فأقبل عليَّ ولطم وجهي ، فقال رسول الله ﷺ : « **مهلاً يا أبا بكر** » فقال :

يا رسول الله أما سمعت ما قالت ، فقال رسول الله ﷺ : « إن الغيرى لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه »[1]

ونظراً للمقام الرفيع الذي كان للسيدة عند النبي ﷺ فقد كانت أكثرهن غيرةً وأشدهن حساسيةً في هذا الأمر ، يدل على ذلك قولها : ما رأيت صانعة طعام مثل صفية ، أهدت إلى النبي ﷺ إناءً فيه طعام ، فما ملكتُ نفسي أن كسرته ، فسألت النبي ﷺ عن كفارته فقال : « إناء كإناء وطعام كطعام »[2] .

حتى إنها كانت تغار إذا ذكر ﷺ السيدة خديجة رضي الله عنها ، وتقر بذلك فتقول : استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ ، فعرف استئذان خديجة ، فارتاح لذلك ، فقال : « اللهم هالة بنت خويلد » فقلت : وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين ، هلكت في الدهر ، فأبدلك الله خيراً منها ، قال ﷺ : « ما أبدلني الله خيراً منها ، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله أولادها وحرمني

---

(١) أبو يعلى ، وفيه ابن إسحاق ، وهو مدلّس ، وسلمة بن الفضل اختلف فيه . انظر مجمع الزوائد .

(٢) رواه النسائي ، وهو في البخاري من حديث أنس .

أولاد الناس »[1] وصرحت في حديث آخـــر بشدة غيرتها منها فقالت : **ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ـ ولقـد هلكتْ قبل أن يتزوجني بثلاث سنين ـ لما كنت أسمعه يذكرها ، ولقـد أمره ربه عز وجل أن يبشرها ببيت من قصب**[2] **في الجنـة ، وإن كان ليذبـح الشاة ثم يهديها إلى خلائلها** ، وزادت في رواية ثانية أنه ﷺ قال : « إني قـد رُزقت حبها »[3] .

وتعرضت السيدة ـ لما لها من مكانة عالية في قلب النبي ﷺ ـ إلى منافسة شديدة من أمهـات المؤمنين ، وقصّت السيدة بعض أحداث هـذه المنافسة فقالت : أرسل أزواج النبي ﷺ فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، فاستأذنت عليه ـ وهو مضطجع معي في مرطي ـ فأذن لها ، فقالت : يا رسول الله إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، وأنا ساكتةٌ ، فقال لها رسول الله ﷺ : **« أي بنية ألست تحبين ما أحب ? »** فقالت : بلى ، قال : **« فأحبي هذه »** فقامت فاطمة حين سمعت ذلـك من رسول الله ﷺ ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ ،

(١) رواه مسلم وأحمد واللفظ له .

(٢) القصب : اللؤلؤ .

(٣) متفق عليه .

فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ ، فقلن لها : ما نراك أغنيت عنا من شيء فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له : إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة ، فقالت فاطمة : **والله لا أكلمه فيها أبداً** .

فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ – وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ ، ولم أر امرأة قط خيراً في الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثاً وأوصل للرحم ، وأعظم صدقةً وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تَصدقُ بـه وتقرَّب بـه إلى الله تعالى[1] ، ما عدا سَوْرة من حِدَّةٍ كانت فيها ، تسرع منها الفيئة – فاستأذنت على رسول الله ﷺ – ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحالة التي دخلت فاطمة عليها وهو بها – فأذن لها رسول الله ﷺ ، فقالت : يارسول الله ، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة ، قالت : ثم وقعت بي فاستطالت علي ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طَرْفه هل يأذن لي فيها ، قالت : فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لايكره أن أنتصر ، قالت : فلما وقعت بها لم أنشبها

---

(١) كانت تعمل وتتصدق .

ـ أي لم أتركها ـ حتى أنحيت عليها ، فقال رسول الله ﷺ : « **إنها ابنة أبي بكر** »[1] .

وما كانت المنافسة تتوقف بينهن حضراً ولا سفراً ، قالت السيدة : كان النبي ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه ، فطارت القرعة لعائشة وحفصة ، وكان النبي ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث ، فقالت حفصة : ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك تنظرين وأنظر ؟ فقالت : بلى ، فركبت ، فجاء النبي ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة ، فسلم عليها ، ثم سار حتى نزلوا ، وافتقدته عائشة ، فلما نزلوا جعلت رجليها بين الإذخر وتقول : يا رب سلّط علي عقرباً أو حيةً تلدغني ، ولا أستطيع أن أقول له شيئاً[2] .

وربما دفعتهن الغيرة والمنافسة للاحتيال له ﷺ ، قالت عائشة : إن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً ، فتواصيت أنا وحفصة أن أيّتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل : إني أجد منك ريح مغافير[3] ، أكلتَ مغافير ، فدخل على إحداهما ، فقالت له ذلك ، فقال : « لا بل شربت عسلاً

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم .
(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري .
(٣) صمغ حلو رائحته غير طيبة .

عند زينب بنت جحش ، ولن أعود له » فنزلت (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لـك ، تبتغي مرضات أزواجك - إلى - إن تتوبا إلى الله) لعائشة وحفصة (وإذ أسرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه) لقوله : بل شربت عسلاً[1] .

المرأة المجاهدة :

شاركت المرأة المسلمة في صدر الاسلام الرجل في تحمل أعباء الجهاد في سبيل الله ، وكان جهادها يتناسب مع أنوثتها ، فما كان يزيد - في الأعم الأغلب - على مرافقة الجيوش ؛ لإعداد الطعام ، وسقي المـاء ، وتمريض الجرحى ، وإخلاء القتلى ، وما كانت تشارك في القتال الفعلي إلا في حالات الضرورة القصوى عندما يضعف الرجال في القتال ، فـكان النساء في الجهاد ردءاً للرجال وعوناً لهم .

وضربت السيدة عائشة بسهم وافر في هذا المجال في معارك الاسلام الأولى ، ففي غزوة أحـد خرجت مـع النساء تسقي الجرحى وتحمل قِرب الماء على عاتقها ، لتفرغها في أفواه المجاهدين ، قال أنس بن مالك : ولقـد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري .

سليم وإنهما لمشمرتان أرى خَدَمَ[1] سوقهما تنقلان القرب على متونهما ثم تفرغانه في أفواههم ، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان تفرغانه في أفواه القوم[2] .

وفي غزوة الخندق نزلت من الحصن الذي وضع فيه النبي ﷺ النساء والأطفال وتقدمت إلى الصفوف الأمامية ، حتى أنكر عمر بن الخطاب عندما رآها جرأتها ، وقالت في وصف ذلك : خرجت يوم الخندق أقفو الناس ، فسمعت وئيد الأرض ورائي ، فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه ومعه ابن أخيه الحارث ابن أوس ، يحمل مجنّه ، فجلست إلى الأرض ، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوف على أطراف سعد – وكان سعد رضي الله عنه من أعظم الناس وأطولهم – فمر وهو يرتجز :

لبِّثْ قليلًا يشهدِ الهيجا جَمَلْ   ما أحسن الموتَ إذا حان الاجل

فقمت فاقتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين وإذا فيها عمر بن الخطاب ، وفيه رجل عليه نشيعة – تعني المغفر – فقال

---

(١) الواحدة خَدَمَة وهي الخلخال، وهذه الرؤية لم يكن فيها نهي لأن هذا كان قبل أمر النساء بالحجاب وتحريم النظر إليهن ، أو يحمل على حصول تلك الرؤية فجأة بغير قصد ولم يستدمها . انظر (أنس بن مالك) للمؤلف .

(٢) متفق عليه .

عمر: ماجاء بك؟ لعمري والله إنك لجريئة، ومايؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوز، فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت بي ساعتئذ فدخلت فيها، فرفع الرجل النشيعة عن وجهه فإذاهو طلحة بن عبيد الله، فقال: ياعمر ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله تعالى؟! [1].

ولما اتسعت رقعة الدولة المسلمة وابتعدت ميادين الجهاد عن المدينة المنورة قلّت مشاركة السيدة في الجهاد لأنه عليه الصلاة والسلام كان يقرع بين نسائه ليصطحب من يخرج سهمها كما مر معنا، ولكنها رضي الله عنها ظلت تحض على الجهاد وتحث عليه.

أخرج الإمام أحمد عن عائشة أن مكاتباً لها دخل عليها ببقية كتابته، فقالت له: ما أنت بداخل علي غير مرتك هذه، فعليك بالجهاد في سبيل الله، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما خالط قلبَ امرىءٍ رهجٌ في سبيل الله إلا حرم الله عليه النار» [2].

---

(١) انظر بقية الحديث ووصفها لأحداث الخندق وقريظة في تفسير ابن كثير ٣/٤٨٠، وقد أخرجه أحمد في المسند. والتحوز: من قوله تعالى: «أو متحيزاً إلى فئة» أي منضماً إليها.

(٢) الرهج: الغبار، ورجال أحمد ثقات.

دفاعها عن المرأة :

أدركت المرأة حين عرفت الاسلام أنه الدين الذي سيخلصها من مظالم الجاهلية التي كانت تعاني منها ، فسارعت إلى التصديق به والجهاد في سبيله ، وأخذت في ظلاله تطالب بحقوقها المشروعة الكاملة وتدافع عنها ، وكان للسيدة عائشة في هذا المضمار دور كبير ، حتى غدت زعيمة الآخذين بناصر المرأة والمدافعين عنها ، وإليها وحدها تطلعت أبصار المستضعفات والمضطهدات لما لها من مكانة كبرى عند رسول الله ﷺ ، وكم نزل الوحي على النبي ﷺ في حجرة السيدة بسبب شكاياتهن وقضاياهن . من ذلك قول السيدة : كان الناس ، والرجل يطلّق امرأته ما شاء أن يطلقها ، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة ، وإن طلقها مائة مرة ، حتى قال رجل لامرأته ، والله لا أطلقك فتبينين مني ولا آويك أبداً ، قالت : وكيف ذاك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضي راجعتك ، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها ، فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته ، فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن : (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) قالت عائشة : فاستقبل الناس الطلاق مستقبلاً ، من كان طلق ومن لم يكن طلق[1] .

---

(١) رواه الترمذي .

ومن ذلك أيضاً قول السيدة : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى علي بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهي تقول : يارسول الله أكل شبابي ونثرتُ له بطني ، حتى إذا كَبُرَتْ سني وانقطع ولدي ظاهر مني[١] ، اللهم إني أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبرائيل بهذه الآيات : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله)[٢] .

وهذه امرأة ضربها زوجها ثابت بن قيس فكسر بعضها ، فأتت رسول الله ﷺ – وهو في حجرة السيدة – بعد الصبح فاشتكته إليه ، فدعا النبي ﷺ ثابتاً فقال : « خذ بعض مالها وفارقها » ...[٣] .

وهذه فتاة تدخل أيضاً على السيدة قائلة : إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته وأنا كارهة ، فقالت لها السيدة : اجلسي حتى يأتي النبي ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأرسل إلى أبيها فدعاه ، فجعل الأمر إليها ، فقالت : يا رسول الله : قد أجزت ماصنع أبي ولكن أردت أن أعلم أللنساء من الأمر شيء[٤].

---

(١) أي قال لها : أنت علي كظهر أمي ، وكانوا في الجاهلية يعدونه طلاقاً.

(٢) رواه ابن ماجه ، وأخرجه البخاري أيضاً .

(٣) رواه أبو داود .

(٤) رواه النسائي وهو في البخاري أيضاً من حديث خنساء بنت خدام صاحبة القضية .

وبعد وفاة النبي ﷺ بقيت السيدة زعيمة المدافعين عن المرأة ، تنكر على كل من يتكلم بشيء ينال من كرامة المرأة وتغضب منه ، وقد مر معنا إنكارها لما ذكر عندها ما يقطع الصلاة : الكلب والحمار والمرأة ، وقولها : قد شبهتمونا بالحمير والكلاب[1] ، وغضبت أيضاً عندما دخل عليها رجلان فقالا : إن أبا هريرة يحدث أن نبي الله ﷺ كان يقول : « إنما الطيّرَة في المرأة والدابة والدار » فطارت شقة منها في السماء وشقة منها في الأرض[2] وقالت : والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ما هكذا كان يقول ، ولكن كان نبي الله ﷺ يقول : « كان أهل الجاهلية يقولون : الطيّرَة في المرأة والدابة والدار » ثم قرأت

---

(١) انظر الحديث كاملاً في بحث : جهاز العروس ، وقد استدلت به عائشة والعلماء بعدها على أن المرأة لا تقطع صلاة الرجل ، وحملوا الحديث الصحيح الذي رواه عدد من الصحابة كأبي هريرة وابن عباس وأبي ذر ، على أن المراد بالقطع نقص الصلاة لشغل القلب بهذه الاشياء وليس المراد إبطالها ، كذا في شرح مسلم للنووي ، والجدير بالذكر أن حديث قطع الصلاة أخرجه أحمد أيضاً في مسند السيدة عائشة عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقطع صلاة المسلم شيء إلا الحمار والكافر والكلب والمرأة » لقد قرنا بدواب سوء .

(٢) الشقة : القطعة المشقوقة ، وهذا مبالغة في التعبير عن الغضب والغيظ .

عائشة [ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها][1] .

وكما كانت السيدة شديدة الدفاع عن المرأة وحقوقها كانت أيضاً شديدة الإنكار على النساء اللواتي يخالفن بعض أحكام الشريعة ، فقد واجهت نساء حمص عندما دخلن عليها قائلة : لعلكن من اللواتي يدخلن الحمامات ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أيما امرأة وضعت ثيابها في غير بيت زوجها ، فقد هتكت ستر ما بينها وبين الله »[2] ، ولما رأت تغيراً في ملابس بعض النساء بعد عهد النبي ﷺ أنكرت ذلك وقالت : لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت نساء بني إسرائيل[3] .

---

(١) أخرجه أحمد ، وأخرج إنكار عائشة أبو داود الطيالسي بشكل آخر ، وفيه قالت : « لم يحفظ أبو هريرة ... فسمع آخر الحديث ولم يسمع أوله ، وهذا يدل على اضطراب الرواية عن عائشة في إنكارها لحديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر وسهل بن سعد ، وأخرجه مسلم عن جابر ، فلا مجال للقول : إن أبا هريرة لم يحفظ ، وإذا صح ما نسب للسيدة فإنه يكون كما قال الزركشي ، من باب الزيادة المفيدة في الحكم وليس من باب التعارض . انظر الإجابة .

(٢) رواه ابن ماجه وأبو داود وأحمد .

(٣) متفق عليه .

وكانت رضي الله عنها تحرص على أن تكون ثياب المرأة ساترة لها عن الرجال الأجانب ، فإذا مارأت على إحداهن ثوباً رقيقاً زجرتها وبادرت إلى تمزيقه ، أخرج ابن سعد أن حفصة بنت عبد الرحمن دخلت على أم المؤمنين ، وعلى حفصة خمار رقيق ، فشقته عائشة عليها وكستها خماراً كثيفاً . وكثيراً ما كانت تثني على النساء في زمن النبي ﷺ لمبادرتهن إلى تنفيذ الأوامر الإلهية فتقول : يرحم الله النساء المهاجرات الأُوَل ، لما أنزل الله (وَلْيَضْرِبْنَ بخمُرِهن على جيوبهنَّ) شققن أكثف مروطهن فاختمرن بها [1] وتقول رضي الله عنها : **إنما الخمار ما وارى الشعر والبشر** [2] .

والجدير بالذكر هنا أن السيدة ترى وجوب ستر المرأة وجهها عن الأجانب عنها ولو كانت محرمة بالحج ، يدل على ذلك قولها : كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات ، فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزنا كشفناه [3] . ولما أرسلها النبي ﷺ مع أخيها عبد الرحمن إلى التنعيم لتحرم من هنالك للعمرة قالت في وصف ذلك : إني

---

(١) رواه البخاري وأبو داود ، وفي رواية عنها أنها أثنت أيضاً على نساء الأنصار بمثل هذا .

(٢) المصنف ٣/١٣٣ .

(٣) سنن أبي داود ٢/١٦٧ .

لأذكر وأنا جارية حديثة السن أنعس فتصيب وجهي مؤخرة الرحل ، حتى جئنا إلى التنعيم ، فأهللت منها بعمرة الناس التي اعتمروا ، فجعلت أرفع خماري أحسره عن عنقي ، فيضرب رجلي بعلة الراحلة [1] قلت : وهل ترى من أحد ؟ ؛ قالت : فأهللت بعمرة حتى انتهينا إلى رسول الله ﷺ [2] .

وداع الحبيب :

نالت السيدة عائشة رضي الله عنها شرف خدمة النبي ﷺ وتمريضه في أيام حياته الأخيرة ، فما إن شعر ﷺ بالمرض حتى أخذ يسأل : « أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً ؟ » حرصاً على بيت عائشة ، واستأذن عليه الصلاة والسلام أزواجه أن يمرض في بيت عائشة ، فأذن له أزواجه أن يكون حيث أحب ، قالت السيدة : فمات ﷺ في اليوم الذي كان يدور علي فيه ، فقبضه الله عز وجل وإن رأسه لبين سحري ونحري ، وخالط ريقه ريقي [3] .

وبينت السيدة في حديث آخر كيف خالط ريقه ريقها فقالت : إن من نعم الله عليّ أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي ،

---

(١) أي يضرب رجلي عامداً لها في صورة من يضرب الراحلة . انظر شرح مسلم للنووي .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم .

(٣) رواه البخاري .

وفي يومي ، وبين سحري ونحري ، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته ، دخل علي عبد الرحمن وبيده السواك ، وأنا مسندة رسول الله ﷺ ، فرأيته ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فتناولته ، فاشتد عليه ، وقلت : أليّنه الك ؟ فأشار برأسه أن نعم ، فليّنته ، وبين يديه ركوة ، أو علبة ، فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه ، يقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت سكرات » ثم نصب يده فجعل يقول : « في الرفيق الأعلى » حتى قبض ومالت يده[1] .

وظلت رضي الله عنها في هذه المرحلة العصيبة التي مرت بها ، رابطة الجأش ثابتة القلب والنفس ، على الرغم من شدة سكرات الموت التي عاناها ﷺ حتى كانت تقول : مات رسول الله ﷺ وإنه لبين حاقنتي وذاقنتي – أي على صدرها – فلا أكره شدة الموت لأحد بعد ما رأيت رسول الله ﷺ[2] .

انظر إلى ثباتها وهدوء نفسها ، وقد اشتد المرض بالنبي ﷺ ، وهي تنفث عليه ﷺ بالمعوذات وتمسح بيده لأنها تذكرت أنه ﷺ إذا مرض فعل بنفسه ذلك[3] .

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري .

(٢) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه واللفظ للنسائي .

(٣) انظر صحيح البخاري ، والنفث : نفخ فيه ريق .

لله درُّك يا أم المؤمنين ، ثبتك الله بموقف لا يثبت فيه عمالقة الرجال ، وليس ذلك غريباً على بنت الصدّيق أبي بكر ، فقد ثبته الله سبحانه عندما علم بوفاة النبي ﷺ وثبّت به أصحاب النبي ﷺ بعد أن زعزعتهم شدة المصيبة وهزت كيانهم وطاشت أحلامهم ، فقال عمر مقالته وصار الناس لا يدرون ما هم صانعون حتى جاء الله بأبي بكر فقام في الصحابة ذلك المقام العظيم ، فعادوا إلى أنفسهم ، واحتسبوا مصيبتهم عند الله .

قالت السيدة : لما قبض رسول الله ﷺ وأبو بكر عند امرأته ابنة خارجة بالعوالي ، فجعلوا يقولون : لم يمت النبي ﷺ إنما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحي ، فجاء أبو بكر ، فكشف عن وجهه ، وقبّل بين عينيه ، وقال : أنت أكرم على الله أن يميتك مرتين ، قد – والله – مات رسول الله ﷺ ، وعمر في ناحية المسجد يقول : والله مامات رسول الله ﷺ ولايموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير ، وأرجلهم ، فقام أبو بكر فصعد المنبر فقال : من كان يعبد الله فإن الله حي لايموت ، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات [وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين] قال عمر : فلكأني لم أقرأها إلا يومئذ[1] .

---

(١) رواه البخاري والنسائي وابن ماجه واللفظ له .

ودفن النبي ﷺ في حجرة السيدة في المكان الذي توفاه الله تعالى فيه ، ووقع في حجرتها القمر الأول ، وكانت رضي الله عنها قد رأت في نومها كأن ثلاثة أقمار سقطن في حجرتها ، فقال أبو بكر : إن صدقت رؤياك دفن في بيتك خير أهل الأرض ، ثلاثة ، فلما مات النبي ﷺ قال لها أبو بكر : **خير أقمارك يا عائشة** ، ودفن في بيتها أبو بكر وعمر[1] .

أخرج أبو داود في سننه عن القاسم أنه قال : دخلت على عائشة فقلت : يا أُمَّه اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما ، فكشفت لي عن ثلاثة قبور ، لا مُشْرِفةٍ ولا لاطِئةٍ ، مَبْطوحةٍ ببَطْحاءِ العَرْصة الحمراء[2] .

(١) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد .

(٢) مسند عائشة .

الفصل الثالث

عائشة

بعد النبي صلى الله عليه وسلم

تمهيد

في عهد أبي بكر

في عهد عمر

في عهد عثمان : تمحيص الحقائق ـ الذهاب إلى مكة

في عهد علي : بين يدي المأساة ـ استعراض الأحداث ـ يوم المأساة ـ التهمة الظالمة ـ علي وأمهات المؤمنين ـ موقف علي في حادث الإفك ـ السيدتان

في عهد معاوية : السيدة بعد يوم الجمل ـ علاقتها مع معاوية

وفاتها رضي الله عنها

عائشة

بعد النبي صلى الله عليه وسلم

تمهيد

رفع الله أمهات المؤمنين إلى مقام تندقّ دونه الرقاب ، وأحاطهن برعاية وتقديس أذعن لهن من أجلها كل مسلم ، فأنزل الله في إعظامهن قرآناً يتلى في محاريب المسلمين منذ أربعة عشر قرناً إلى قيام الساعة ، يسمعه المؤمن فيمتلىء صدره إجلالاً لمن شاركن الرسول ﷺ في ضرّائه وسرّائه ، وصبرن معه على شظف العيش ، وتحمّلن معه صروف الأذى ، وخفّفن عنه مايجد من آلام في سبيل الدعوة إلى الله[1] (النبي أولى بالمؤمنين من من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ...) (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبيِّنة يُضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيراً) (ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً) (يا نساء النبي لستنّ كأحدٍ من النساء ، إن اتقيتنّ فلا تخضعنَ بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ، وقلن قولاً معروفاً) (وقَرْنَ في بيوتكنّ ،

(١) عائشة والسياسة .

ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) (واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً)[1] .

ظلت بيوتهن مهابط الوحي والرحمة والهدى مدى حياته عليه الصلاة والسلام ، فلما انتقل إلى جوار ربه بقيت هذه البيوت مثابةً للناس ، يقصدونها متعلمين مستفتين أو ملتجئين مستغيثين ، فكانت تهدي الحائر ، وتعلّم الجاهل ، وتحمي الملتجىء ، وتنجد المستغيث ، وظل الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم ، الخلفاء فمن دونهم ، يخضعون لأزواج رسول الله ﷺ خضوع الأبرار لأمهاتهم[2] .

وكانت السيدة عائشة عَلَماً بينهن ، بما امتازت من عظيم المحبة ورفيع المنزلة عند رسول الله ﷺ ، وبما تم لها من المكانة الكبيرة في العلم والأدب ، حتى احتاج إليها خاصُّ الأمة وعامتها ، فرحلوا إليها من مختلف الأقطار والأمصار ، ومما زاد في إقبال الناس عليها شوقهم لزيارة النبي ﷺ ، فأصبحت حجرتها كعبة المحبين ومقصد المشتاقين وروَح أرواح المؤمنين ...

---

(١) الآيات ٢٨ـ٣٤ من سورة الأحزاب .
(٢) عائشة والسياسة .

في عهد أبي بكر :

رشح النبي ﷺ أبا بكر لمقام الخلافة بعده حين أمره أن يصلي بالناس أثناء مرضه ، وراجعت السيدة النبي ﷺ خشية أن يتشاءم الناس بأبيها ، فقالت : لما دخل رسول الله ﷺ بيتي قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقلت : يارسول الله إن أبا بكر رجل رقيق ، إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه ، فلو أمرت غير أبي بكر ، قالت : والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ ، قالت : فراجعته مرتين أو ثلاثاً ، فقال : « ليصل بالناس أبو بكر فإنكن صواحب يوسف »[1] .

ولزمت السيدة بعد وفاة النبي ﷺ حجرتها ، تعزي نفسها بجواره ﷺ ، ولم يظهر للناس دورها العلمي الذي قامت بعد ذلك به نظراً لحداثة العهد بالنبي ﷺ وانشغال الناس بحروب الردة ، ولما أراد أزواج النبي ﷺ أن يرسلن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن من رسول الله ﷺ قالت السيدة لهن : أوَليس قد قال رسول الله ﷺ : « لانورث ، ما تركناه فهو صدقة »[2] ولم تطل خلافة الصديق ، فقد اتفقت الروايات على

(١) رواه الجماعة واللفظ لمسلم . ومعنى قوله : إنكن صواحب يوسف : أي في التظاهر على ما تردن ، وكثرة إلحاحكن في طلب ما تردنه وتملن إليه .

(٢) رواه أحمد ٢٦٢/٦

أن أبا بكر استكمل في خلافته سن رسول الله ﷺ فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وكانت ولادته بعد الفيل بسنتين وأربعة أشهر إلا أياماً ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة [1] .

وامتد المرض بأبي بكر خمسة عشر يوماً ، والناس يعودونه والسيدة تشرف على تمريضه ، وأثناء ذلك كانت تعزي نفسها فتتمثل ببعض الأشعار ، فينبهها رضي الله عنه ، وهو في سياقة الموت ، لتستبدلها بالآيات القرآنية الكريمة ، ولما حضرته الوفاة قالت رضي الله عنها كلمة من قول حاتم :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فقال : لاتقولي هكذا يا بنية ، ولكن قولي : [وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد] وعادت فأنشدت فوق رأسه وهو يقضي :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه
ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال رضي الله عنه : ذاك رسول الله ﷺ [2] .

(١) أبو بكر .
(٢) رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات .

وأوصى أبو بكر عائشة رضي الله عنها أن يدفن إلى جنب رسول الله ﷺ ، فلما توفي حفر له في حجرة السيدة ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ ، وألصق اللحد بقبر رسول الله ﷺ ، وجعل قبر أبي بكر مثل قبر النبي ﷺ مسطحاً ، ورش عليه الماء ، **وسقط القمر الثاني في حجرة السيدة رضي الله عنها .**

واختار أبو بكر من بين أولاده وبناته السيدة عائشة لتتولى تنفيذ وصيته التي قال فيها لعائشة : إني قد كنت نحلتكِ حائطاً – بستاناً – وإن في نفسي منه شيئاً فرديه إلى الميراث ؛ قالت : نعم ، فرددته ، فقال :

أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم في بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي ، وهذا البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فإذا مت فابعثي بهن إلى عمر وأبرئي منهن . ففعلت . فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض ويقول : **رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده ؛ رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده** [1] .

---

(١) حياة الصحابة ٢/٤٦٠ .

في عهد عمر :

بدأت تظهر المكانة العلمية الكبرى للسيدة في عهد عمر رضي الله عنهما ، وكان عمر وغيره من كبار الصحابة إذا أشكل عليهم أمر ، وبخاصة في الشؤون الشخصية للانسان ، يسألون عنه السيدة رضي الله عنها . أخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال : **كان أزواج النبي ﷺ يحفظن من حديث النبي ﷺ كثيراً ، ولا مثلاً لعائشة وأم سلمة ، وكانت عائشة تفتي في عهد عمر وعثمان إلى أن ماتت يرحمها الله ، وكان الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ، عمر وعثمان بعده ، يرسلان إليها فيسألانها عن السنن**[1] .

ومن الأمثلة على ذلك أنه لما اختلف الأنصار والمهاجرون في وجوب الغسل عند مخالطة الرجل زوجته دون إنزال ، قال أبو موسى : فأنا أشفيكم من ذلك ، فقمت فاستأذنت على عائشة فأُذن لي ، فقلت لها : يا أم المؤمنين — أو يا أماه — إني أريد أن أسألك عن شيء ، وإني أستحييك ، فقالت : لاتستحيي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك فإنما أنا أمك ، قلت : فما يوجب الغسل ؟ قالت : على الخبير سقطت ، قال رسول الله ﷺ : « إذا جلس بين شعبها الأربع ومس الختانُ

---

(١) الطبقات ٢/٣٧٥ .

الختانَ فقد وجب الغسل »[1] وأخرج الطحاوي هذا الحديث في مشكل الآثار وذكر أن عمر بن الخطاب هو السائل[2] .

وكان عمر رضي الله عنه يرى أن المحرم لا ينبغي أن يُشَمّ منه ريح الطيب ، ويقول : لأن أجد من المحرم ريح القطران أحب إلي من أن أجد ريح الطيب ، فلما سمعت عائشة استدركت عليه قائلة : طيبت النبي ﷺ – وفي رواية لإحرامه – فأصبح وإن وبيص المسك – آثاره – في مفارقه[3] . وأخرج البيهقي عن ابن عمر سمعت عمر يقول : إذا رميتم وحلقتم فقد حل لكم كل شيء إلا النساء والطيب ، قال سالم : قالت عائشة : كل شيء إلا النساء ، أنا طيبت رسول الله ﷺ لحله .

وقد أخرج الشيخان عنها : طيبت رسول الله ﷺ لحرمه حين أحرم ولحله حين حل قبل أن يطوف بالبيت[4] .

وكان عمر رضي الله عنه شديد الاهتمام بأمهات المؤمنين ،

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الإجابة .

(٣) قال البيهقي : يحتمل أنه لم يبلغه حديث عائشة ، أو كره ذلك لئلا يغتر به الجاهل ، فيتوهم أن ابتداء الطيب يجوز للمحرم . انظر الإجابة . لكن الذي في الصحيحين أن هذا مما استدركته عائشة على ابن عمر لا على عمر . مسند عائشة .

(٤) الإجابة .

كثير التفقد لأحوالهن ، شهدت له السيدة بذلك فقالت : كان عمر بن الخطاب يرسل إلينا بأحظائنا — حصصنا — حتى من الرؤوس والأكارع[1] . وكان عنده صحاف تسع فلا تكون فاكهة ولا طريفة إلا جعل منها في تلك الصحاف ، فبعث بها إلى أزواج النبي ﷺ[2] ، ولما قسم خيبر خيّر أزواج النبي ﷺ بين أن يقطع لهن من الأرض أو يضمن لهن المائة وسق كل عام ... وكانت عائشة وحفصة ممن اختار الأوسق[3] ، وقد بلغ من شدة اهتمامه بهن وحرصه عليهن وتعظيمه لمقامهن ، أنهن لما استأذنّه بالحج أرسل معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وأمرهما أن يسير أحدهما بين أيديهن والآخر خلفهن ولا يسايرهن أحد ، فإذا نزلن فأنزلوهن شِعباً ثم كونا على باب الشعب لا يدخلنّ عليهن أحد ، ثم أمرهما إذا طفن في البيت ألا يطوف معهن أحد إلا النساء[4] .

وكانت السيدة عائشة تهاب عمر وتجلّه وتحترمه يدل على ذلك قولها في حديث ممازحتها لسودة — وقد مر معنا — : فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ له[5] . وفي مسندها عدد من

---

(١) أخبار عمر .

(٢) حياة الصحابة ٣٦٩/٢ .

(٣) أخبار عمر .

(٤) أخبار عمر .

(٥) انظر الحديث في بحث خير الأزواج وألطفهم .

الأحاديث روتها السيدة عن النبي ﷺ في فضائل عمر ومناقبه منها : قوله ﷺ : « **قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون – أي ملهمون – ، فإن يكن في أمتي منهم أحد ، فإن عمر بن الخطاب منهم** »[1] ومنها قوله عليه الصلاة والسلام : « إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فرّوا من عمر »[2] .

ولما أرسل ولده عبد الله بعدما طُعن إلى السيدة يستأذنها ليدفن في الحجرة الشريفة ؛ أذنت له ، وتأمل أدب عمر مع السيدة رغم أنه في سياقة الموت ، فقد قال لابنه عبد الله : انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فمضى فسلم واستأذن ، ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي ، فسلم عليها وقال كما أوصاه ، قالت : كنت أريده لنفسي ولأوثرنه به اليوم على نفسي ، فلما أقبل قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعوني ، فأسنده رجل إليه ، فقال : مالديك قال : الذي تحب يا أمير المؤمنين ، أذنتْ ، قال : الحمد لله ، ما كان شيء أهم إلي من ذلك المضجع ، يا عبد الله بن عمر ، انظر ، فإذا أنا قبضت فاحملوني على سريري ثم قف بي على الباب ، فقل : يستأذن عمر

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذي وحسنه .

ابن الخطاب ، فإن أذنت لي فأدخلني ، وإن ردتني فردني إلى مقابر المسلمين ، فإني أخشى أن يكون إذنها لي لمكان السلطان ، فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ ، فأذن له فدفن حيث أكرمه الله مع النبي ﷺ ومع أبي بكر رضوان الله عليهما [1] **وسقط القمر الثالث في حجرة السيدة .**

في عهد عثمان :

زادت المكانة العلمية للسيدة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه بعد أن اتسعت رقعة الدولة المسلمة ، ودخلت في الاسلام أمم وشعوب كثيرة ، واحتاج الناس إلى علم السيدة وفقهها ، فقصدوها من كل حدب وصوب .

ولم يكن عثمان رضي الله عنه أقل من عمر عناية بأمهات المؤمنين ورعاية لهن واهتماماً بشؤونهن ، وحج بأمهات المؤمنين ، فصنع بهن كما صنع عمر ، فكان عبد الرحمن بن عوف في موضعه ، وجعل في موضع نفسه الصحابي الجليل سعيد بن زيد ، هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمه [2] .

ولا شك أن السيدة أعرف الناس بفضائل عثمان ومناقبه ومكانته عند رسول الله ﷺ ، وقد انفردت السيدة برواية عدة

---

(١) أخبار عمر ، وهو في البخاري .

(٢) عائشة والسياسة .

أحاديث عن النبي ﷺ في فضائل عثمان ومناقبه ، مما يدل دلالة قاطعة على احترام السيدة لعثمان وتقديرها له .

من هذه الأحاديث أن النبي ﷺ كان يستحيي من عثمان وأنه إذا دخل عليه جلس وسوّى ثيابه ، وقال لعائشة وقد سألته عن ذلك : « **ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة** » وفي رواية ثانية : « ... إن عثمان رجل حيي . . »[1] .

ومنها قولها : دخل عليٌّ رسول الله ﷺ فرأى لحماً ، فقال : « من بعث هذا ؟ » قلت : عثمان ، قالت : فرأيت رسول الله ﷺ رافعاً يديه يدعو لعثمان[2] .

ولما سمعتْ أن بعض الناس ينال من عثمان غضبت غضباً شديداً وقالت : لعن الله من لعنه ، لعن الله من لعنه ، لقد رأيت رسول الله ﷺ وهو مسند فخذه إلى عثمان ، وإني لأمسح العرق عن جبين رسول الله ﷺ وإن الوحي ينزل عليه ، ولقد زوجه ابنتيه إحداهما بعد الأخرى ، وإنه ليقول : « اكتب عثيم » قالت : ما كان الله لينزل عبداً من نبيه بتلك المنزلة إلا عبد كريم عليه[3] .

---

(١) انظر روايات الحديث كاملة في صحيح مسلم .
(٢) رواه البزار وإسناده حسن .
(٣) رواه أحمد والطبراني ، ورجاله ثقات عدا بنت ثمامة غير معروفة .

والجدير بالذكر أن السيدة هي التي روت حديث وصية النبي ﷺ لعثمان لكي لايتنازل عن الخلافة إن وليها مهما طلبوا منه ذلك ، فقالت : قال رسول الله ﷺ : « يا عثمان إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً ، فأرادك المنافقون على أن تخلع قميصك الذي قمّصك الله ، فلا تخلعه » يقول ذلك ثلاث مرات ، قال النعمان بن بشير : فقلت لعائشة : ما منعك أن تُعلمي الناس بهذا ، قالت : أُنسيته[1] .

كما أنها التي روت أن النبي ﷺ قال في مرضه : « وددت أن عندي بعض أصحابي » قلنا : يا رسول الله ألا ندعو لك أبا بكر ؟ فسكت ، قلنا : ألا ندعو لك عمر فسكت ، قلنا : ألا ندعو لك عثمان ؟ قال : « نعم » فجاء فخلا به ، فجعل النبي ﷺ يكلمه ، ووجه عثمان يتغير ، قال قيس بن حازم — راوي الحديث عن عائشة — : فحدثني أبو سهلة مولى عثمان ، أن عثمان بن عفان قال يوم الدار : إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهداً ، فأنا صائر إليه ، وفي رواية : فأنا صابر عليه . قال قيس : فكانوا يرونه ذلك اليوم[2] .

---

(١) رواه الترمذي وأحمد وابن ماجه ، واللفظ له ، وأخرجه الترمذي بدون سؤال النعمان وفي رجال أحمد وابن ماجه ضعيف وقد وثق . انظر المجمع .

(٢) رواه ابن ماجه ، وإسناده صحيح ورجاله ثقات .

وظلت السيدة على مودتها لعثمان وتقديرها له إلى أن قتل رضي الله عنه شهيداً ، فكانت رضي الله عنها أول من طالب بدمه والاقتصاص من قتلته والثائرين عليه كما سيأتي إن شاء الله بيانه . كما أن عثمان ظل أيضاً على احترامه للسيدة وبقية أمهات المؤمنين ورعايتهن وتكريمهن إلى آخر حياته رضي الله عنه .

تمحيص الحقائق :

زعم بعضهم أن خلافاً قد نجم بين السيدة وعثمان رضي الله عنهما ، وأن السيدة ساهمت في تأليب الناس على عثمان حتى حدث له ما حدث ، وتعلق أصحاب هذا الزعم بروايات باطلة واهية نسجتها العصبيات المذهبية والسياسية وتلقفها بعض الرواة دون تمحيص أو تحقيق فأثبتوها في كتبهم ؛ لأنها تلائم أهواءهم وتتفق مع رغباتهم . ومن الذين تعلقوا بهذه الروايات الباطلة الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه « عائشة والسياسة » ، فقد عقد فصلاً مستقلاً في كتابه جعل له العنوان التالي :

كيف ساءت العلاقات بينهما في خلافته[1] .

وإنصافاً للسيدة من الظلم الكبير الذي ألحقه بها بعض المؤرخين من ذوي العصبيات السياسية ، وبياناً للحق أسوق فيما يلي الروايات التي احتج بها الأفغاني ثم أعقب عليها بأسلوب المحدثين الذي يعتمد

(١) عائشة والسياسة .

على فحص السند والمتن ، ولا شك أن أسلوب المحدثين ومنهجهم الذي اعتمدوه أفضل طريق لتحقيق الوثائق التاريخية وتمحيص أخبارها ورواياتها .

الزعم الأول :

قال الأفغاني : لعل أول ما غيّر قلب السيدة — من حيث لا تشعر — نقص عثمان من عطائها : كان عمر بن الخطاب قد فضّل عائشة على أخواتها أمهات المؤمنين في العطاء لمكانها من رسول الله ، ولما تؤدّي من خير في نشر سنته أكثر منهن ، ففرض لأمهات المؤمنين ستة آلاف ، وفرض لعائشة في اثني عشر ألفاً ، فلما ولي عثمان نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب ، وصيّرها أسوةَ غيرها من نساء رسول الله ﷺ ، فإن عثمان ليخطب إذ دلّتْ عائشة قميص رسول الله ﷺ ونادت : « يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبلَ وقد أبلى عثمان سنّته » فقال عثمان : رب اصرف عني كيدهن إن كيدهن عظيم[1] .

وهذا الزعم باطل من عدة وجوه :

أولاً : أنه يتعارض مع ما اشتهر أن عمر فرض لأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألف درهم لكل امرأة منهن ، ويروى أنه فرض لصفية وجويرية ستة آلاف ، ستة آلاف ، فأبتا أن تقبلا ،

---

(١) عائشة والسياسة .

فقال لهما : إنما فرضت لهنّ للهجرة ، فقالتا : لا ، إنما فرضت لهن لمكانتهن من رسول الله ﷺ وكان لنـــا مثله . وهذه أصح الروايات في هذا الموضوع وهي التي ذكرها أبو يوسف في كتابه الخراج ، وابن سعد في كتابه الطبقات ، وغيرهما ، وذهب الماوردي في الأحكام السلطانية إلى القول بأن عمر فرض لهن عشرة آلاف إلا عائشة فإنـه فرض لها اثني عشر ألفاً[1] ، وفي مسند أحمد أن عمر فرض لأمهات المؤمنين عشرة آلاف .

ثانياً : زاد المـال في عهد عثمان زيادة كبيرة حتى كان الحسن يقول : أدركت عثمان على ما نقموا عليه ، قلما يأتي على الناس يوم إلا وهم يقتسمون فيه خيراً ، ويقال لهم : يامعشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم : اغدوا على أرزاقكم فيأخذونها وافرة ، ثم يقال لهم : اغدوا على السمن والعسل ، الأعطيات جارية ، والأرزاق دارة ، والعدو متقى[2] . والمشهور من حال عثمان أنه كان يجود بالمـال الكثير ويتفقد بيوت النبي ﷺ في حياته ، أفيُعقل أن يضن به على أزواجه بعد وفاته ، وقد كثر المال هذه الكثرة وزاد هذه الزيادة ؟!.

---

(١) انظر أخبار عمر .

(٢) البداية والنهاية ٧/٢١٤ .

ثالثاً : ليس من المعقول أن ترفع السيدة صوتها أمام جمهور الصحابة وفي المسجد، من أجل ستة آلاف درهم ، وقد اشتهرت بالزهد الشديد والسخاء العريض ؛ حتى كانت تأتيها عشرات الألوف فلا تقوم من مجلسها حتى توزعها كلها ، وقد حفلت كتب السنة والتاريخ بأخبار كثيرة للسيدة في هذا المجال[1] .

رابعاً : العطاء سنة سنها عمر لم تؤثر عن النبي ﷺ ، والسيدة أعلم الناس بسنته ، فكيف تتهم عثمان بتعطيل سنة من سننه ﷺ وهي تعلم أنها ليست من سننه عليه الصلاة والسلام .

خامساً : هـذا الأسلوب المسرحي الذي نسبته الروايات الباطلة إلى السيدة ، لا يتفق مطلقاً مع مقام السيدة وأخلاقها ومكانتها .

الزعم الثاني :

قال الأفغاني : يأتي وفد مصر يشكو عاملها عبد الله بن أبي سَرْح ، فيكتب له عثمان كتاباً يتهدده وينهاه ، فيأبى ابن أبي سرح أن ينتهي ، ويضرب رجلاً من الوفد فيقتله ، فيخرج من مصر سبعمائة رجل إلى المدينة ، فينزلون المسجد يشكون إلى

---

(١) انظر الفصل الأخير من هذا الكتاب في بحث : سخاؤها وجودها .

أصحاب رسول الله ﷺ في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح ، فيكلمون عثمان بشدة ، وترسل إليه السيدة عائشة تقول : قد تقدم إليك أصحاب رسول الله ﷺ ، وسألوك عزل هذا الرجل ، فأبيت أن تعزله ، فهذا قد قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك[1] .

هذا جزء من رواية مطولة ذكرها ابن عبد ربه في العقد الفريد ، وفي سندها يعقوب بن عبد الرحمن ، ضعّفه علماء الرجال حتى قالوا عنه : في حديثه وهم كثير ، ليس بالمرضي[2] . وفي سندها أيضاً محمد بن عيسى الدمشقي ، اختلفوا فيه ، قال أبو حاتم : لا يحتج به .

وقال ابن عدي : لا بأس به[3] وفي متنها أخبار كثيرة شكّك في صحتها كثير من المؤرخين[4] ولذلك أضرب الطبري عن ذكرها ، والمعروف عن الطبري أنه يترك الروايات الشنيعة جداً ، وكثيراً ما يشير إليها قائلاً : أضربنا عنها لشناعتها .

الزعم الثالث :

قال الأفغاني : كان مما أخذ الناس على عثمان : عزله من

---

(١) عائشة والسياسة .

(٢ - ٣) المغني في الضعفاء .

(٤) انظر عثمان الخليفة المفترى عليه .

ولاية الكوفة القائد المغوار صاحب رسول الله سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وتوليته مكانه الوليد بن عقبة – أخا عثمان من أمه – رجلاً مستهتراً ، فكان من جراء تصرفات العامل الجديد أن يأتي عثمان وفد من أهل الكوفة يطلبون عزل عاملهم ، ويشهدون عليه بإتيان منكر يوجب الحد ، فلا يقنع بشهادتهم ويظن بهم التزوير ويتوعدهم ، فيأتي الشهود عائشة ملتجئين مستجيرين ، فيخبرونها بما جرى بينهم وبين عثمان وأنه زجرهم وهددهم ، فتنادي عائشة : إن عثمان عطل الحدود وتوعد الشهود . ويزيد البلاذري على ذلك رواية بعضهم : أن عائشة أغلظت لعثمان وأغلظ لها وقال : وما أنت وهذا ؟ إنما أمرتِ أن تقري في بيتك ، فقال قوم مثل قوله ، وقال آخرون : ومن أولى بذلك منها ؟ فاضطربوا بالنعال ، وكان ذلك أول قتال بين المسلمين بعد النبي ﷺ .

ثم قال الأفغاني : ويطيب لي أن أثبت هنا رواية صاحب الأغاني ففيها تفاصيل تفصح عن غضب عثمان وتهديده ، وأن السيدة – بعد ما تقدم – أعادت القول في الموضوع نفسه واستطاعت إهاجة عثمان حتى أخرجته عن حلمه ، قال أبو الفرج الأصفهاني : خرج رهط من أهل الكوفة في أمر الوليد بن عقبة ، فقال عثمان : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ! لئن أصبحت لكم لأنكلنّ بكم ، فاستجاروا بعائشة ، وأصبح عثمان

فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة ، فقال : أما يجد مُرّاق أهل العراق وفسّاقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ ! ! فسمعت فرفعت نعل رسول الله ﷺ وقالت : تركتَ سنة رسول الله صاحب هذا النعل ، فتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد ، فمن قائل : أحسَنَتْ ، ومن قائل : ما للنساء ولهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان فقالوا له : اتق الله ولاتعطل الحد واعزل أخاك عنهم ، فعزله عنهم[1] .

العجيب أن الأستاذ الأفغاني يخبر في مقدمة كتابه أنه جعل أكثر اعتماده على تاريخ الطبري خاصة ؛ لأنه – كما يقول – أقرب المصادر إلى الواقع وصاحبه أكثر المؤرخين تحرياً وأمانة" ، ثم تراه هنا يُعرض عن روايات الطبري التي ذكرها بأسانيدها وطرقها المختلفة وبعضها رغم حسنه في ذاته يقوى بالأخرى ، ويتمسك بروايات المصادر المشبوهة التي كثيراً ماطعن بها الأفغاني نفسه في كتابه . ومن مقارنة روايات الطبري بهذا الذي ذكره الأفغاني في هذه القضية نجد روايات الطبري تخالفها في عدة نقاط :

١ – لم يعزل عثمان سعد بن أبي وقاص إلا بعد أن قام

(١) عائشة والسياسة .

خلاف بين سعد وبين عبد الله بن مسعود ، فاضطر عثمان لعزله لهذا السبب بعد أن أقره على ولاية الكوفة أكثر من سنة في أول خلافته .

٢ ـ استعمل على الكوفة بعده الوليد بن عقبة ، وكان قبل ذلك على عرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب ، فلا يعقل أن يكون عامل من عمال عمر مستهتراً ، فقدم الكوفة ، فكان أحب الناس وأرفقهم بهم ، واستمر على ذلك خمس سنين ، وليس على داره باب .

٣ ـ تعرض الوليد بن عقبة أثناء ولايته لمؤامرة من بعض الموتورين ، الذين نقموا على الوليد لأنه عاقبهم على جرائم ارتكبوها ، فاتهموا الوليد بشرب الخمر وسرقوا خاتمه ، وشهدوا زوراً عليه ، فحلف الوليد لعثمان ، وأخبره خبرهم ، ومع ذلك أمر عثمان بإقامة الحد عليه قائلاً : **نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالإثم ، فاصبر يا أخي**[1] .

٤ ـ لم يذكر الطبري في رواياته المتعددة أي تدخل للسيدة في هذه القضية لا من قريب ولا من بعيد[2] .

فأين هذا من روايات اليعقوبي وأبي الفرج الأصفهاني ،

(١ ـ ٢) انظر الطبري ٤/٢٥١ ـ ٤/٢٧١ وما بعدها .

وما الذي جعل الأستاذ الأفغاني يستطيب الأخذ بروايات ظاهرة الكذب والبطلان ، ويعرض عن روايات الطبري التي ساقها من عدة طرق بأسانيد متعددة ؟ ! !

ولا بد أن أذكّر الأستاذ الأفغاني أن إقامة عثمان الحد على الوليد ثابتة في الصحيحين ، ورواية مسلم لها كما يلي : حدثنا حُضين بن المنذر أبو ساسان قال : شهدت عثمان بن عفان ، وأُتي بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ، ثم قال : أزيدكم ، فشهد عليه رجلان : أحدهما حُمران أنه شرب الخمر ، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ ، فقال عثمان : إنه لم يتقيأ حتى شربها ، فقال : يا علي قم فاجلده ، فقال علي : قم يا حسن فاجلده ، فقال الحسن : ولِّ حارَّها من تولى قارَّها ، فقال : يا عبد الله بن جعفر : قم فاجلده ، فجلده وعلي يعد حتى بلغ أربعين فقال : أمسك ، ثم قال : جلد النبي ﷺ أربعين وجلد أبو بكر أربعين ، وعمر ثمانين ، وكلٌّ سُنَّة ، وهذا أحب إليّ[1] .

---

(١) ولا تظنن أن صلاة الوليد بالناس وهو في حال السكر ثابتة ، فإن الحضين راوي الحديث لم يشهدها ، إنما حكى في الحديث ما أشيع عنه ، ولو أنها ثبتت عليه لما احتاج عثمان لكي يقيم الحد عليه إلى شهادة الذي رآه يشربها وشهادة الآخر الذي رآه يتقيأها ، ورفض الحسن رضي الله عنه طلب والده لجلد الوليد دليل على أنه لم يكن مصدقاً للشهود ، وليس كما ترى في الرواية هذه أي اتهام لعثمان بأنه رفض إقامة الحد أو اتهم الشهود وأراد أن ينكل بهم حتى استجاروا بالسيدة كما زعمت الروايات الباطلة .

الزعم الرابع :

قال الأفغاني : كان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود قد أبى أن يبعث بمصحفه إلى المدينة ، وأبى تسليمه عبد الله بن عامر حسب أمر الخليفة ، فغضب عثمان وأمر بإشخاص ابن مسعود إليه ... فقد وافى ابن مسعود المدينة ، ودخل مسجدها ، وعثمان يخطب ، فيزعم المؤرخون أنه حين أبصر ابن مسعود داخلًا قال : ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة سوء ، ويزيد البلاذري في روايته هذه الكلمة : من يمشي على طعامه يقيء ويسلح[1] ، فيرد ابن مسعود : لست كذلك ولكني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر ويوم بيعة الرضوان ! ! حينئذ لا تملك السيدة عائشة نفسها وهي غضبى لهذا الاستقبال السيىء ... فتنادي من حجرتها : أي عثمان ، أتقول هذا لصاحب رسول الله ؟ ! ويأمر عثمان بابن مسعود فيجر برجله حتى يكسر له ضلعان وتتكلم عائشة وتقول قولاً كثيراً[2] .

وبطلان هذا الذي نقله الأفغاني من أنساب الأشراف للبلاذري ومن تاريخ اليعقوبي ، واضح ظاهر ، لأنه لايتفق أبداً مع ما اشتهر من حياء عثمان رضي الله عنه وكريم شمائله وأخلاقه ،

---

(١) يسلح : يتغوط .

(٢) عائشة والسياسة .

فلا يعقل أن يستقبل أحد كبار الصحابة بما نسب إليه ، وإنما الذي حدث – كما ذكره المؤرخ والمحدث الكبير ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية – أن ابن مسعود تعتب لما أُخذ منه مصحفه فحُرق ، وتكلم في تقدم إسلامه على زيد بن ثابت الذي كتب المصاحف ، وأمر أصحابه أن يغلوا مصاحفهم ، وتلا قوله تعالى : [ومَن يغلُلْ يأتِ بما غَلَّ يوم القيامة] فكتب إليه عثمان رضي الله عنه يدعوه إلى اتباع الصحابة فيما أجمعوا من المصلحة في ذلك وجمع الكلمة وعدم الاختلاف ، فأناب وأجاب إلى المتابعة وترك المخالفة رضي الله عنهم أجمعين[1] .

وقد صح عن ابن مسعود قوله : **الخلاف شر** ، قال ذلك لمّا قيل له : صلى عثمان الظهر بمنى أربعاً ، فعاب ابن مسعود عليه ثم صلى بأصحابه العصر في رحله أربعاً ، فقيل : عتبت على عثمان وصليت أربعاً ؟ ! فقال : **إني أكره الخلاف** ، وفي رواية : **الخلاف شر** ، قال ابن كثير : **فإذا كان هذا متابعة من ابن مسعود إلى عثمان في هذا الفرع فكيف بمتابعته إياه في أصل القرآن** ... !! وقد حكى الزهري وغيره أن عثمان إنما أتم خشية على الأعراب أن يعتقدوا أن فرض الصلاة ركعتين ، وقيل بل تأهل – تزوج – بمكة[2] .

(١ – ٢) البداية والنهاية ٧/٢١٨ .

هذا هو الحق والصواب فيما روي من قضية ابن مسعود مع عثمان وليس للسيدة فيها أي ذكر ، ولم تصل القضية إلى الحد الذي تصوره بعض المؤرخين حتى تتدخل السيدة فيها ، وعبد الله ابن مسعود نفسه قد أثنى على عثمان يوم بويع بقوله : **استخلفنا خير من بقي ولم نأل**[1] .

الزعم الخامس :

قال الأفغاني : ثم وقع شر من هذا في شأن صحابي جليل آخر هو عمار بن ياسر : كان عمار قد أنكر على عثمان حين حلى نساءه من بعض ما في بيت المال — ولعل ذلك كان على سبيل العارية ولكن الناس ألفوا طراز عمر في الحكم — فدعا عماراً فشتمه وضربه حتى غشي عليه — على ما يقول البلاذري — ثم أمر به فأخرج ، فأتى منزل أم سلمة . . . فإذا أم سلمة قد غضبت لعمار . وبلغ عائشة ماصنع بعمار فغضبت وأخرجت شعراً من شعر رسول الله ﷺ وثوباً من ثيابه ونعلاً من نعاله ، ثم قالت : ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم تبل بعد ؛ فغضب عثمان غضباً شديداً حتى ما درى ما يقول ،

---

(١) أخرجها ابن سعد في الطبقات من طرق متعددة ، وفي بعضها أنه كان يرددها كثيراً في خطبه ٣/٦٢ .

فالتج المسجد ـ اختلطت أصوات أهله ـ وقال الناس : سبحان الله سبحان الله [١] .

الملاحظ أن الأستاذ الأفغاني حريص كل الحرص على إقحام السيدة عائشة في كل قصة من القصص التي نسبت إلى عثمان ، ليحملها تبعة تأليب الناس عليه ، وقد اختار من الروايات الكثيرة التي رويت في قصة عثمان مع عمار الرواية التي يذكر فيها تدخل للسيدة وإنكارها على عثمان بهذا الأسلوب المسرحي الذي راق للكذّابين أن ينسبوه للسيدة في أكثر من قصة ، وقد زادوا هذه المرة أنها أخرجت مع ثوب النبي ﷺ شعراً من شعره ونعلاً من نعاله .
وإظهاراً لتضارب روايات هذه القصة وتعارضها ، وبياناً لبراءة السيدة مما نسب إليها في هذه القضية أنقل للقارىء فيما يلي أمثل ما روي فيها :

روى أبو بكر بن أبي شيبة عن الأعمش قال : كتب أصحاب عثمان عيبه وما ينقم الناس عليه في صحيفة ، فقالوا : من يذهب بها إليه ؟ قال عمار : أنا أذهب بها إليه ، فلما قرأها عثمان قال : أرغم الله أنفك ، قال عمار : وأنف أبي بكر وعمر ، فقام عثمان إلى عمار فوطئه حتى غشي عليه ، ثم ندم عثمان وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له : اختر إحدى ثلاث :

---

(١) عائشة والسياسة .

إما أن تعفو وإما أن تأخـذ الأرش[1] وإما أن تقتص ، فقال عمار : والله لا قبلت واحدة منها حتى ألقى الله .

ورواية أخرى تقول : ... فلما قرأ عثمان الكتاب طرحه ، فقال عمار : لا ترم بالكتاب ، وانظر فيه فإنه كتاب أصحاب رسول الله ﷺ ، وإني لك والله ناصح وخائف عليـك ، فقال له عثمان : كذبت يا بن سمية ، وأمر غلمانه فضربوه حتى وقع لجنبه وأغمي عليه أربـع صلوات قضاها بعد الإفاقة ، واتخذ لنفسه تباناً تحت ثيابه لأجل الفتق ، فغضب لذلك بنو مخزوم ، وقالوا : والله لئن مات عمار من هذا لنقتلن من بني أمية شيخاً عظيماً ، يعنون عثمان .

ورواية ثالثة يحدثنا بها سيدنا عثمان نفسه في الرواية الصحيحة أنه قال : جاء عمار وسعد إلى المسجد ، وأرسلا إلي أن ائتنا فإنا نريد أن نذكرك أشياء فعلتها ، فأرسلت إليهما : إني عنكما اليوم مشغول ، فانصرفا وموعدكما يوم كذا فانصرف سعد ، وأبى عمار أن ينصرف ، فأعدت إليـه رسولي فأبى ، ثم أعدته إليـه فأبى ، فتناوله رسولي بغير أمري ، والله ما أمرته ولا رضيت بضربه ، وهذه يدي لعمار فليقتص مني إن شاء[2] .

---

(١) اسم للمال الواجب على ما دون النفس . انظر التعريفات .

(٢) انظر هذه الروايات في الكتاب النفيس : عثمان الخليفة المفترى عليه ، وتعليق المؤلف عليها .

الزعم السادس :

قال الأفغاني : فإذا أردت التأثير غير المباشر في فتنة عثمان ، فلعل أصح حكم وأصدقه في توزيع هذا التأثير كلمة سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل : قتل عثمان سيفٌ سلته عائشة ، وشحذه طلحة ، وسمه علي ، وأشار الزبير بيده وصمت لسانه[1] .

نقل الأفغاني هذا القول المنسوب إلى سعد من كتاب « العقد الفريد » ، وقد ذكره المؤلف بالشكل التالي : العتبي قال : قال رجل من ليث : لقيت الزبير قادماً ، فقلت : أبا عبد الله مالك ؟ قال : مطلوب مغلوب يغلبني ابني ويطلبني ذنبي ، قال : فقدمت المدينة فلقيت سعد بن أبي وقاص ، فقلت : أبا إسحاق من قتل عثمان ؟ ... الخ[2] .

وآثار عدم الصحة في هـذا الخبر واضحة ، فمتى كان الزبير مغلوباً ؟ ثم كيف وصل إلى العتبي ؟ ومن هو هذا الليثي ؟!! والمشهور من حال سعد أنه اعتزل الخوض في الخلاف الذي نشب بين الصحابة بعد مقتل عثمان ، وكان بعد ذلـك إذا سمع أحداً ينال من علي رضي الله عنـه نهاه فإذا لم ينته دعا عليه[3] ، فهل

(١) عائشة والسياسة .
(٢) العقد الفريد ٤/٢٣ .
(٣) البداية والنهاية ٨/٧٧ .

يعقل أن ينهى الناسَ عن أمر ويفعله ، وكانت السيدة تحب سعداً وتحترمه ، ولما توفي طلبت أن يمر بجنازته على المسجد لتصلي عليه مع أمهات المؤمنين[1] .

هذه أهم المزاعم التي احتج بها الأفغاني في تأييد ما تصوره من خلاف مزعوم نشب بين السيدة وعثمان رضي الله عنهما ، وببيان بطلان هذه المزاعم يظهر خطأ ما تصوره الأفغاني ومن سبقه من المؤرخين الذين تعلقوا بروايات باطلة لا أساس لها من الصحة .

الذهاب إلى مكة :

خرجت السيدة من المدينة إلى مكة حاجّة بعد أن غلب الثائرون والغوغاء على المدينة المنورة ، فأصبحت الحياة فيها مع هؤلاء لا تطاق ، وقد بلغت الجرأة والوقاحة بهم أن اعتدوا على أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها ، عندما حاولت إيصال الماء إلى عثمان وهو محصور في بيته ، بعد أن منع الثائرون عنه الماء ، فجاءت راكبة على بغلة فقطعوا حزام البغلة وندّت بها ، وكادت أو سقطت عنها ، وكادت تقتل لولا تلاحق بها الناس فأمسكوا بدابتها ، ووقع أمر كبير جداً ، ولما وقع هذا أعظمه الناس جداً ولزم أكثر الناس بيوتهم ، وجاء وقت الحج فخرجت أم المؤمنين عائشة في هذه السنة إلى الحج ، فقيل لها : إنك لو

(١) رواه مسلم .

أقمت كان صلح ، لعل هؤلاء القوم يهابونك ، فقالت : **إني أخشى أن أشير عليهم برأي فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة** [1] .

وعلمت السيدة بمقتل عثمان وهي في طريق العودة إلى المدينة ، فقالت : أكياس ، هذا غبُّ ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح [2] ، ورجعت إلى مكة وهي لاتقول شيئاً حتى نزلت على باب المسجد ، وقصدت للحجر فستّرتْ فيه واجتمع الناس إليها ، فقالت :

يا أيها الناس ، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الإِرْبَ [3] **، واستعمالَ من حدثت سنّه ، وقد استُعمل**

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٨٧/٧ .

(٢) هذه الكلمة البليغة تدل على بعد نظر السيدة ، وأنها كانت ترى أن معاتبة بعض الصحابة لعثمان أمام عوام الناس من أهم الأسباب التي جرأت الثائرين على عثمان ، وقد استغلها السبئيون — أتباع اليهودي ابن سبأ — أبشع استغلال لترويج الشائعات ضد عثمان وتأليب الناس عليه حتى حدث ما حدث ، وفي هذه الكلمة دليل واضح أن السيدة لم تنكر على عثمان شيئاً ولم يصدر منها شيء مما زعمته الروايات الباطلة .

(٣) الإرب : الدهاء والعقل والدين والحاجة .

أسنانهم قبله ، ومواضعَ من مواضع الحمى حماها لهم ، وهي أمور قد سُبق بها لايصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً فلجّوا وبادَوْا بالعدوان ، ونبا فعلُهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام ، والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ، ووالله لو أن الذي اعتدّوا به عليه كان ذنباً لخلَّصَ منه كما يخلّص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه ، إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء[1] .

هذه أول خطب السيدة بعد قتل عثمان ، وهي تدل على تقدير السيدة لعثمان وبراءتها من كل ما نسب إليها من تهم تأليب الناس عليه ، وقد ذكر الطبري رواية ثانية أخـّرها كثيراً عـن هذه الرواية[2] ، وفيها : أن عائشة رضي الله عنها لما انتهت إلى سرِف راجعة في طريقها إلى مكة[3] ، لقيها عبد بن أم كلاب — وهو عبد بن أبي سلمة ، ينسب إلى أمه — فقالت له : مَهْيَم ؟

---

(١) أرادت أنهـم استتابوه عما نقموا منـــه فلما أعطاهم ما طلبوه قتلوه . الطبري ٤/٤٤٨ .

(٢) المعروف عن الطبري في تاريخه أنه يؤخر الروايات الضعيفة .

(٣) لعل الصواب : في طريقها إلى المدينة ، أو في طريقها من مكة .

قال : قتلوا عثمان – رضي الله عنه – فمكثوا ثمانياً ، قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ قال : أخذها أهل المدينة بالاجتماع ، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز ، اجتمعوا على علي بن أبي طالب ، فقالت : والله ليت أن هذه انطبقت على هذه إن تمّ الأمر لصاحبك ، ردوني ، ردوني ، فانصرفت إلى مكة وهي تقول : قتل والله عثمان مظلوماً والله لأطلبن بدمه ، فقال لها ابن أم كلاب : ولمَ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ؛ ولقد كنت تقولين : اقتلوا نعثلًا فقد كفر ، قالت : إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول ، فقال لها ابن أم كلاب :

فمنك البَداءُ ومنك الغِيَرْ ومنك الرياح ومنك المطرْ
وأنتِ أمرتِ بقتل الإمام وقلتِ لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك في قتله وقاتلُه عندنا مَنْ أَمَرْ
ولم يسقط السقفُ من فوقنا ولم تنكسف شمسُنا والقمر
وقد بايع الناسُ ذا تُدْرَأٍ (1) يزيل الشَّبا ويقيم الصَّعَر
ويلبس للحروب أثوابها وما مَنْ وفى مثل مَنْ قد غدر

فانصرفت إلى مكة فنزلت على باب المسجد ، فقصدت للحِجر

---

(1) أي ذو قوة وعدة .

فسثَّرتْ واجتمع الناس إليها ، فقالت : يا أيها الناس ، إن عثمان قتل مظلوماً ووالله لأطلبن بدمه[1] .

والمتأمل لهاتين الروايتين يرى الفرق واضحاً كبيراً بينهما والتناقض ظاهراً ، وتلوح على الرواية الثانية لوائح التعصب السياسي ، وقد ذكر لها الطبري سندين ، في أولها : نصر بن مزاحم العطار ، وهو موصوف في كتب الرجال بالصفات التالية : رافضي ، منكر ، تركوه ، جَلِدَ[2] ، وفي ثانيها : عمر بن سعد ، وهو متهم بالوضع أو متروك أو لا يصح حديثه[3] ، وفيه أيضاً أسد بن عبد الله ، قال عنه البخاري : لا يتابع على حديثه[4] .

وهذا يجعلنا نأخذ بالرواية الأولى ونرفض الثانية ، فإن قيل : إن الرواية الأولى رويت عن سيف بن عمر ، قال عنه المحدثون : متروك وقد اتهم بالزندقة ، قلت : وإن ضُعِّف في الحديث فهو عمدة في التاريخ ، وليس ثمة دليل على زندقته بل الروايات عنه تدل على خلاف ذلك[5] .

(١) الطبري ٤/٤٥٨ .

(٢ - ٣ - ٤) المغني في الضعفاء .

(٥) انظر المغني وتعليقات الدكتور نور الدين العتر عليه .

وبعد كل هذا لابد أن نشير إلى موقف السيدة من أخيها محمد بن أبي بكر ، فقد كان من كبار الثائرين على عثمان والمؤلبين عليه . وقد غضبت السيدة على أخيها لموقفه من عثمان وسمته مذمماً ، وظلت تدعو عليه من كبد حرّى وعلى بقية الساعين في قتل عثمان دعاءً حاراً ، وقد أدركته دعوة السيدة فقتل وحرق في جيفة حمار[1] .

في عهد علي :

لم يكن بين السيدة وعلي رضي الله عنه قبل توّليه الخلافة مايدعو السيدة إلى مخالفته والخروج عليه ، بل كانت علاقتها معه قائمة على المودة والاحترام المتبادلين بينهما ، ولاشك أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أعرف الناس بمقام السيدة ومكانتها الرفيعة عند النبي ﷺ ، والسيدة أيضاً تعرف لعلي رضي الله عنه مكانته الرفيعة عند النبي ﷺ وقرابته منه ومصاهرته له وجهاده وشجاعته وسابقته ، ويدل على ذلك أنها لما سُئلت : أي الناس كان أحب إلى رسول الله ﷺ ؟ قالت : فاطمة ، فقيل : من الرجال ؟ قالت : زوجها ، إن كان ما علمت صوّاماً قوّاماً[2] . كما أنها التي روت حديث فضل أهل البيت الذي يعتبر من أعظم

---

(١) انظر تفاصيل قتله في البداية والطبري ، وسيمر معنا بعضها .
(٢) رواه الترمذي وحسنه .

مناقب علي رضي الله عنه فقالت : خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مِرطٌ مرحّلٌ[1] من شعر أسود ، فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال : [**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا**][2] .

وروت أيضاً حب النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما فقالت : كان ﷺ يأخذ حسناً فيضمه إليه فيقول : « إن هذا ابني فأحبَّه وأحبَّ من يُحبُّه »[3] . وإذا ما سُئلتْ عن شيء لاتعلمه تحيل السائل على علي رضي الله عنه ، فلما سألها شريح ابن هانىء عن المسح على الخفين قالت : عليك بابن أبي طالب فسله فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ ، فسألناه فقال : جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويوماً وليلة للمقيم[4] . وربما أحالت عليه بعض الأسئلة مع علمها بأجوبتها ، من ذلك أنها لما سئلت : في كم تصلي المرأة من الثياب ؟ فقالت للسائل : سل علياً ثم ارجع إليّ فأخبرني بالذي يقول لك ، قال : فأتى

---

(١) أي ثوب منقوش عليه صور رحال الإبل .

(٢) رواه مسلم .

(٣) الطبراني وفيه ضعيف ، كما في المجمع .

(٤) رواه مسلم وأخرجه أيضاً النسائي وابن ماجه .

علياً فسأله فقال : في الخمار والدرع السابغ ، فرجع إلى عائشة فأخبرها ، فقالت : صدق[1] .

ولما بويع علي رضي الله عنه بالخلافة لم يتغير قلب السيدة عليه ، بل كانت تنصح بمبايعته ، فقد أخرج الطبري بسند صحيح عن الأحنف بن قيس قال : حججنا فإذا الناس مجتمعون في وسط المسجد – يعني النبوي – فلقيت طلحة والزبير ، فقلت : إني لا أرى هذا الرجل – يعني عثمان – إلا مقتولاً فمن تأمراني به ، قالا : عليٌّ ، فقدمنا مكة ، فلقيت عائشة ، وقد بلغنا قتل عثمان ، فقلت لها : من تأمريني به ؟ قالت : علي ، قال : فرجعنا إلى المدينة فبايعتُ علياً ورجعت إلى البصرة[2] .

وأخرج ابن أبي شيبة بسند جيد عن عبد الرحمن بن أبزى قال : انتهى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي إلى عائشة يوم الجمل ، وهي في الهودج ، فقال : يا أم المؤمنين أتعلمين أني أتيتك عندما قتل عثمان ، فقلت : ما تأمريني ؟ فقلت : الزم علياً ، فسكتت[3] .

بين يدي المأساة :

ما مرّ يؤكّد حُسْنَ علاقة السيدة مع علي رضي الله عنهما قبل

---

(١) المصنف ١٢٨/٢ .

(٢) فتح الباري ٢٩/١٣.

(٣) فتح الباري ٤٨/١٣.

توليه الخلافة وبعدها ، ولابد لك بعد هذا أن تتساءل : ما الذي جعل السيدة إذن تخالف علياً رضي الله عنه ؟ ولماذا ذهبت إلى البصرة حتى حدث يوم الجمل المفجع ، وكانت هذه المأساة المروّعة التي تعتبر من أعظم المآسي في تاريخ المسلمين ؟!!!

للإجابة على هذا التساؤل أضع بين يديك النقاط التالية :

١ – لم تخالف السيدة علياً في شأن توليه الخلافة أبداً ، ولم يصح صدور شيء عنها يدل على ذلك مطلقاً ، إنما خالفت السيدة علياً في توقيت معاقبة الثائرين على عثمان وتعجيل القصاص منهم ، فقد رأت رضي الله عنها أن أمر المسلمين لن يستتب ويستقر حتى يعاقَب الثائرون على عثمان وينكّل بهم وتستريح الأمة منهم ، وما دام هؤلاء أحراراً فسيستفحل شرهم ويتعاظم خطرهم وتزداد مصائب الأمة بسببهم . ولم تنفرد السيدة بهذا الرأي إنما كان معها فيه جمهرة كبيرة من الصحابة وكبار التابعين ، وسيكشف لك استعراض الحوادث عن سداد رأي السيدة وصحته ، فلو قُدّر لعليّ رضي الله عنه أن يتخلص منهم وينكل بهم لما حدث يوم الجمل ، لأن تبعة هذا اليوم المشؤوم تنصب كلها على أولئك الذين ثاروا على عثمان ، وفتحوا باب الفرقة والتمزق في صفوف المسلمين ، وسترى دورهم الكبير الذي قاموا به حتى حدث ماحدث يوم الجمل .

٢ ـ أما علي رضي الله عنه فقد كان يعرف خطر بقاء قتلة عثمان أحراراً ، ولكنه كان يرى صعوبة المبادرة إلى معاقبتهم ، وأمرُ الخلافة لم يستقر بعد ، وشوكة الثائرين لاتزال قوية ، ولذلك لما دخل عليه عدد من الصحابة فيهم طلحة والزبير ، يطالبونه بإقامة الحدود على قتلة عثمان قال لهم : يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعلمون ، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ، ولانملكهم ، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا ، فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون[1] ؟ .

٣ ـ من السهل علينا بعد وقوع المأساة يوم الجمل أن نقول : إن السيدة ومن خرج معها قد أخطأوا في خروجهم ، ولكن يصعب علينا جداً أن نصدر هذا الحكم قبل أن تؤول الحوادث إلى ما آلت إليه ، فلم تكن السيدة تظن أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه ، ولم تكن تتوقع حدوث قتال أو سفك دماء ، ولم يَدُرْ بخلدها أن خروجها سيستغله مدبرو الفتنة من قتلة عثمان ، فيتمكنون من توجيه الحوادث الوجهة المفجعة التي آلت إليها ، بل اقتصرت رضي الله عنها في كل خطبها وكلماتها التي صدرت عنها على المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان وإيقاع العقوبة بهم .

---

(١) الطبري ٤/٤٣٧ .

٤ – لقد فتح مقتل عثمان باب الفرقة والتمزق في صفوف الأمة ولم يغلق حتى اليوم ، ولقد أحاط بهذه الجريمة من الملابسات والظروف ما جعلها فتنة محيرة مدهشة ، ولايزال الدارسون لها في حيرة واضطراب حتى اليوم ، فمن الطبيعي إذن أن تختلف وجهات أنظار الصحابة رضي الله عنهم في كيفية مواجهتها ومعاقبة الثائرين والمجرمين والمسببين لها ، والذي يهمنا في هـذا الكتاب أن ندرس موقف السيدة رضي الله عنهـا وكيفية مواجهتها لهذه الفتنة والظروف التي أحاطت بها .

٥ – زادت مكانـة السيدة في الأمة رفعة واحتراماً وإجلالاً في عهد عثمان وتقاطر الناس إلى حجرتها من جميـع أقطار الاسلام ، واحتاج الناس إلى علم السيدة وفقهها ، فيمم طلاب العلم وشداة المعرفة وجوههم قِبَلَ حجرة السيدة التي أصبحت أعظم مدارس الاسلام الفكرية ، ومع المكانة العلمية زادت مكانتها الاجتماعية في الأمة ، حتى كان الناس يأتون إليهـــا يستشيرونها في شتى شؤونهم[١] ، هذه المكانة التي كانت لها وضعتها في ذروة الأحداث بعد مقتل عثمان ، فـلا يمكن لمثل السيدة في مكانتها ألا يكون لها رأي في حادث عظيم كحادث مقتل عثمان ، فقـد دفعتها مكانتها الكبيرة في الأمة دفعاً إلى لجة الحوادث واضطرتها اضطراراً إلى خوض غمارها .

---

(١) انظر مسند السيدة تجد فيه كثيراً من الآثار تدل على ذلك .

وقد يقول قائل : أليس من الأجدى على السيدة أن تعتزل هذه الأمور وتتأسى ببقيـة أمهات المؤمنين ؟ وأقول : لم تكن ظروف السيدة ومكانتها تشبه ظروف أمهات المؤمنين ، ولا يمكن للسيدة أن يسعها ما وسعهن ، ومـــع ذلك أرادت أم المؤمنين حفصة أن تخرج معها ولكن أخاها عبد الله بن عمر منعها من ذلك .

استعراض الأحداث :

١ ــ علمت السيدة بمقتل عثمان وهي في طريق العودة إلى المدينة ــ كما مر معنا ــ فانصرفت راجعة إلى مكة ، حتى إذا دخلتها أتاها عبد الله بن عامر الحضرمي ــ وكان أمير عثمان عليها ــ فقال : ماردك يا أم المؤمنين ؟ قالت : ردني أن عثمان قُتل مظلوماً وأن الأمر لايستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الاسلام[١] . ثم خطبت خطبتها الأولى في هذا الأمر ، وقد سبق ذكرها .

٢ ــ تضاربت الروايات في وصف الكيفية التي تمت البيعـة فيها لعلي رضي الله عنـه ، ويبدو من خلال الروايات الكثيرة التي ذكرها الطبري أن الثائرين والغوغاء غلبوا على المدينة وظلت خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب ، وأخذ الثائرون يعرضون

---

(١) الطبري ٤/٤٤٩.

البيعة على الخلافة على كبار الصحابة فيأبون عليهم ، ولهم العذر في ذلك ، فإن من يرضى بمنصب الخلافة بعد مقتل عثمان بمبادرة من أولئك الثائرين لابد أن يتهم بعد ذلك بدم عثمان ، وهذا ما حدث لعلي رضي الله عنه ، فقد استغل بعد ذلك بنو أمية ظروف البيعة لعلي للخروج عليه واتهامه بالمشاركة في التأليب على عثمان .

٣ – قبل علي رضي الله عنه منصب الخلافة مكرهاً ، فبقاء الأمة بدون خليفة خطر عليها ، ومصلحة الأمة ينبغي أن تكون فوق كل اعتبار ، وتحمَّل رضي الله عنه تبعة كل ما قيل في حقه بعد ذلك من أجل مصلحة الأمة .

٤ – ضاق علي رضي الله عنه – بعد أن بويع بالخلافة – ذرعاً من تسلط الثائرين ومن معهم من الغوغاء والأعراب على المدينة ، فأخرج منادياً ينادي : برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه ، يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم ، فأبت السبئية – أتباع ابن سبأ وهم رؤوس الفتنة – وأطاعهم الأعراب[1] ، فطلب طلحة والزبير من علي أن يأذن لهما أن يأتيا البصرة والكوفة لإحضار قوة من الجند لمعاقبة هؤلاء ورد الأمر إلى نصابه ، وقد كانت البصرة والكوفة مشحونتين بالسلاح والرجال منذ أن أمر عمر بن الخطاب

---

(١) الطبري ٤/٤٣٨.

بتأسيسها لتكونا ثكنتين عسكريتين لجند المسلمين ينطلقون منها لنشر الاسلام في الشرق .

٥ — لم يأذن علي رضي الله عنه لطلحة والزبير في ذلك ، والسبب الذي هيجه على ذلك — كما قال الطبري — هرب بني أمية من المدينة ورجوع سهل بن حنيف بعد أن أرسله علي عاملاً له على بلاد الشام ، فقد ردته خيل في تبوك قائلين له : إن كان بعثك عثمان فحيهلا بك ، وإن كان بعثك غيره فارجع .

٦ — استأذن طلحة والزبير علياً بالعمرة فأذن لهما ، فأتيا مكة واجتمع رأيها هناك مع رأي أم المؤمنين على المطالبة بدم عثمان ومعاقبة الثائرين عليه ، واتفق رأيهم على السير إلى البصرة وإلى الكوفة لجمع قوة تتمكن من معاقبة الثائرين والاقتصاص منهم لدم عثمان ، وهكذا خرجت السيدة من مكة إلى البصرة .

٧ — كان علي رضي الله عنه يتهيأ في المدينة للخروج إلى معاوية في بلاد الشام ، ولما علم بخبر أهل مكة وخروج طلحة والزبير مع السيدة إلى البصرة ؛ خرج من المدينة مسرعاً وهو يرجو أن يلتقي بهم في الطريق فيردهم عن مقصدهم . ولم يكن علي رضي الله عنه في خروجه يريد قتالاً وما كان يسعى إليه ، يدل على ذلك أنه لما كان في الرَّبَذَة ، قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال : يا أمير المؤمنين أي شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب

بنا ؟ فقال : أما الذي نريد وننوي فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابونا إليه ، قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر ، قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا ، قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم[1] .

٨ – وضعت السيدة نصب عينيها منذ خرجت من مكة العمل من أجل إصلاح الأمة ورأب الصدع الذي أحدثه مقتل عثمان في صفوفها ، وخرج معها أمهات المؤمنين إلى ذات عِرْق يودعنها ، وهناك ودعنها بالدموع والنحيب فلم يُر يوم كان أكثر باكياً على الاسلام – أو باكياً له – من ذلك اليوم ، وكان يسمى يوم النحيب[2] .

٩ – ولما وصلت مياه بني عامر ليلاً نبحت الكلاب ، قالت : أي ماء هذا ؟ قالوا : ماء الحوأب ، قالت : ما أظنني إلا أني راجعة ، فقال بعض من كان معها : بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله عز وجل ، وفي رواية ثانية قال لها الزبير : ترجعين ؛ عسى الله عز وجل أن يصلح بك بين الناس[3] ، واستمرت رضي الله عنها في الطريق إلى البصرة من أجل الإصلاح بعد أن عزمت على الرجوع .

---

(١) الطبري ٤/٤٧٩.
(٢) الطبري ٤/٤٦٠.
(٣) رواه أحمد وصححه الذهبي .

١٠ – وقبل أن تصل إلى البصرة لقيها رسولان أرسلهما عثمان ابن حنيف – والي البصرة من قبل علي – وهما : الصحابي الجليل عمران بن الحصين ، والتابعي أبو الأسود الدؤلي ، فاستأذنا عليها ، فأذنت لهما فسلما وقالا : إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك فهل أنت مخبرتنا ؟ فقالت : والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطي لبنيه الخبر ، إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث ، وآووا فيه المحدثين ، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترةَ ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه ، وانتهبوا المال الحرام ، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ، ومزّقوا الأعراض والجلود ، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ، ضارّين مضرّين ، غيرَ نافعين ولا متقين ، لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون ، فخرجتُ في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القومُ ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي أن يأتوا في إصلاح هذا . وقرأتْ [لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس] ننهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى[1] ، فهذا

---

(١) هذا يدل على أنها كانت ترى أن شأن الإصلاح مأمور به الذكور والإناث على السواء .

شأننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره[1] .

١١ – انقسم أهل البصرة لما سمعوا بقدوم السيدة ثلاث فرق ، فرقة حبذت خروج السيدة وانضمت إليها ، وفرقة بقيت على ولائها لعثمان بن حنيف والي البصرة وأنكرت على السيدة خروجها ، وفرقة اعتزلت الفريقين .

١٢ – والتزمت السيدة مبدأ الإصلاح الذي خرجت من أجله في كل المواقف التي وقفتها في البصرة ، فلما حاول بعض أتباع عثمان بن حنيف أن يقاتل أمرت السيدة من كان معها أن يكفوا عن القتال إلا ما دافعوا عن أنفسهم ، وأمرت منادياً يناشدهم ويدعوهم إلى الكف عن القتال[2] ، ولما تمكن أصحاب السيدة في البصرة وأخذوا عثمان بن حنيف أسيراً أمرتهم أن يخلوا سبيله ليذهب حيث شاء ولا يحبسوه[3] .

١٣ – وبادرت السيدة فور تمكنها في البصرة إلى معاقبة الثائرين من أهل البصرة على عثمان رضي الله عنه ، فقام أصحابها

---

(١) الطبري ٤/٤٦٢ .

(٢) الطبري ٤/٤٦٦ .

(٣) الطبري ٩/٤٦٨ .

بتتبعهم وقتلهم إلا رجلاً واحداً ، وهو حرقوص بن زهير ، فإنه امتنع بعشيرته الكبيرة بني سعد .

١٤ – لم يكن علي رضي الله عنه أقل حرصاً على الإصلاح من السيدة ، فحين اقترب من البصرة أرسل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه وأوصاه قائلاً : **الق هذين الرجلين – طلحة والزبير – فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظّم عليهما الفرقة** ، فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة رضي الله عنها وقال : أي أمَّهْ ، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : **أي بني إصلاح بين الناس** ، قال : فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما ، فبعثت إليهما فجاءا ، فقال : إني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد ؟ فقالت : إصلاح بين الناس ، فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ، قال : فأخبراني ماوجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفنا لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا نصلح ، قالا : قتلة عثمان رضي الله عنه ، فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء للقرآن ، فقال : قد قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة ، وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة منكم اليوم ، قتلتم ستمائة إلا رجلاً ، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم ذلك الذي أفلت – يعني حرقوص بن زهير – فمنعه ستة

آلاف وهم على رِجْل[1] ، فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأُديلوا عليكم فالذي حذرتم وفرقتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون ، وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد ، فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير .

فقالت أم المؤمنين : فتقول أنت ماذا ؟ قال : أقول : هذا الأمر دواؤه التسكين ، وإذا سكن اختلجوا — تفرقوا — فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودَرْكٌ بثأر هذا الرجل ، وعافية وسلامة لهذه الأمة ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه ، كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبِعثة الله في هذه الأمة هزاهزها — البلايا والحروب — فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرّضوا له فيصرعنا وإياكم ، وايم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه ، وإني لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة[2] ، التي قل متاعها ونزّل بها ما نزل ، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدّر ، وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ، ولا القبيلة الرجل . فقالوا : نعم إذاً

---

(١) على رِجْل : على خوف وحذر .

(٢) يعني بذلك : حتى ينزل الله سبحانه على الأمة أنواع البلايا والمحن .

قد أحسنت وأصبت المقالة ، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هـــذا الأمر . فرجع إلى علي فأخبره فأعجبه ذلـك ، وأشرف القوم على الصلح ، كره ذلـك من كرهه ، ورضيه من رضيه[1] .

١٥ ــ أثمرت المساعي الطيبة التي بذلها القعقاع بن عمرو رضي الله عنه ، وتبادل الفريقان الوفود وخطب علي رضي الله عنه في أصحابه فحمد الله عز وجل وأثنى عليــه وصلى على النبي ﷺ ، وذكر الجاهلية وشقاءها ، والاسلام والسعادة وإنعامَ الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله ﷺ ، ثم الذي يليه ، ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا ، حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة ، وأرادوا ردَّ الأشياء على أدبارها ، والله بالغٌ أمره ، ومصيب ما أراد ، ألا وإني راحل غداً فارتحلوا [2] ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء في شيء من أمور الناس وليغنِ السفهاء عني أنفسهم[3] .

---

(١) الطبري ٤/٤٨٨ .

(٢) كان رضي الله عنه أثناء مساعي القعقاع نازلاً بذي قار ، وبعد نجاحها ارتحل حتى نزل إلى جانب البصرة .

(٣) الطبري ٤/٤٩٣ .

يوم المأساة :

بعد أن نزل علي رضي الله عنه بجانب البصرة بعث عبد الله ابن عباس إلى طلحة والزبير ، وبعثا هما محمد بن طلحة إلى علي ، وأن يكلم كل منهما أصحابه ، فقالوا : نعم ، فلما أمسوا — وذلك في جمادى الآخرة — أرسل طلحة والزبير إلى رؤساء أصحابهما ، وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه ، ما خلا أولئك الذين هضوا عثمان — كسروا وقتلوا — فباتوا على الصلح ، وباتوا بليلة لم يبيتوا مثلها للعافية من الذي أشرفوا عليه ، والنزوع عما اشتهى الذين اشتهوا وركبوا ما ركبوا[1] .

أدرك الثائرون على عثمان أن الصلح ليس لصالحهم وأن الدائرة ستدور عليهم ، فباتوا بشر ليلة باتوها قط ، فقد أشرفوا على الهلكة ، وجعلوا يتشاورون ليلتهم كلها حتى اجتمعوا على إنشاب الحرب في السر[2] ، واستسروا بذلك خشية أن يفطن بماحاولوا من الشر ، فغدوا مع الغَلَس ، ومايشعر بهم جيرانهم ، انسلوا إلى ذلك الأمر انسلالاً ، وعليهم ظلمة ، فخرج مضريهم إلى مضريهم ، وربعيهم إلى ربعيهم ، ويمانيهم إلى يمانيهم — تفرقوا بين القبائل —

---

(١) الطبري ٤/٥٠٦ .

(٢) انظر تفصيل مؤامرتهم ودور عبد الله بن سبأ فيها في : الطبري والبداية والنهاية ، وانظر تفاصيلها مرتبة في : عائشة والسياسة .

فوضعوا فيهم السلاح ، فثار أهل البصرة ، وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بهتوهم[1] .

وهكذا وقعت المأساة ونشب القتال ، وبذلت محاولات كثيرة لإيقافه فلم تنجح ، فالسبئية لا تفتر إنشاباً ، وعلي ينادي : أيها الناس كفوا فلا شيء ، وأقبل كعب بن سور - قاضي البصرة - حتى أتي عائشة رضي الله عنها ، فقال : أدركي فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله يصلح بك ، فركبت وألبسوا هودجها الأدراع ثم بعثوا جملها ، وأخذ كعب بزمامه ، فقالت : خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه - ودفعت إليه مصحفاً - وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجري الصلح ، فاستقبلهم كعب بالمصحف ، وعلي من خلفهم يزعهم - يردهم - فيأبون إلا إقداماً ، فلما دعاهم كعب رشقوه رِشْقاً واحداً فقتلوه ، ورموا عائشة في هودجها ، فجعلت تنادي : يا بنيّ البقية ، البقية - ويعلو صوتها كثرة - الله ، الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب ، فيأبون إلا إقداماً[2] .

وأدركت رضي الله عنها أن الأمر أُفلت من يدها ، كما أنها أدركت أن قتلة عثمان هم الذين أنشبوا القتال ، فما كان

---

(١) الطبري ٤/٥٠٦ .
(٢) الطبري ٤/٥١٣ .

منها إلا أن نادت بالناس بحرقة ولوعة ، وهي ترى دماء المسلمين تسفك من حولها ، أيهـــا الناس العنوا قتـلة عثمان وأشياعهم ، وأقبلت تدعو وضج أهل البصرة بالدعاء ، وسمع علي بن أبي طالب الدعاء ، فقال : ما هذه الضجة ؟ فقالوا : عائشة تدعو ، ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم ، فأقبل يدعو ويقول : اللهم العن قتله عثمان وأشياعهم ، وأصيب طلحة في أول المعركة بسهم فترك المكان إلى داخل البصرة حيث مات متأثراً بجرحه ، وأما الزبير فقد ترك المكان منـذ نشب القتال إلى وادي السباع ، فتبعـه عمرو بن جرموز فقتله غيلة .

واستبسل أزد البصرة وبنو ضبّـة حول جمل السيدة ، وهم يرتجزون :

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل   نناز ل الموت إذا الموت نزل

والموت أشهى عندنا من العسل   ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجل(١)

يا أمنـا يا خير أم نعـــلم   أما ترَيْنَ كم شجاع يُـكلَم

وتختلى هامته والمعصم

ياأمنـا يا عيشُ لن تراعي   كلٌ بنيـك بطـــل شجاع

ياأمنـا يازوجـــة النبي   يازوجة المبـارك المهـدي

---

(١) الأسل : الرماح ، بجل : أي كفى .

خرجت السيدة إلى ميدان القتال لإيقافه ، فحدث عكس ما تريد ، فقد حمي القتال بخروجها ؛ إذ حاول السبئية أن يرموها فاستبسل أصحابها حول الجمل وحميت نفوسهم ، حتى قتل على خطام الجمل أربعون – وفي رواية سبعون – قال عبد الله ابن الزبير : ما رأيت مثل يوم الجمل قط ، ما ينهزم منا أحد ، وما نحن إلا كالجبل الأسود ، وما يأخذ بخطام الجمل أحد إلا قتل[1].

وأدرك علي رضي الله عنه أن القتال لن يتوقف حتى يعقر الجمل ، فنادى : اعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا ، فضربه رجل فسقط ، وأمر علي محمد بن أبي بكر أن يضرب على السيدة قبة وأن يطمئن على سلامتها .

ولما كان من آخر الليل خرج محمد بعائشة حتى أدخلها البصرة ، فأنزلها في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية ابنة الحارث ، وكانت الوقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين .

كان من سيرة علي رضي الله عنه ألا يقتل مدبراً ، ولا يذفّف – لا يجهز – على جريح ، ولا يكشف ستراً ، ولا يأخذ مالاً ، وأقام في عسكره ثلاثة أيام لا يدخل البصرة ، وندب الناس إلى موتاهم ، فخرجوا إليهم فدفنوهم ، وصلى على قتلى الفريقين وقال

---

(١) الطبري ٤/٥١٩ .

رضي الله عنه : **إني لأرجو ألا يكون أحد نقي قلبه إلا أدخله الله الجنة**[1] . ودفن الأطراف في قبر عظيم ، وجمع ما كان في أرض المعركة فبعث به إلى مسجد البصرة ، وأمر أن ينادى: أن من عرف شيئاً فليأخذه ؛ إلا سلاحاً كان في الخزائن عليه سمة السلطان ، ودخل عليّ البصرة يوم الإثنين ، فانتهى إلى المسجد فصلى فيه ، ثم راح إلى عائشة على بغلته فسلم عليها .

وجهز علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع ، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات ، وقال لأخيها : تجهز يامحمد فبلغها ، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه ، جاءها حتى وقف لها ، وحضر الناس ، فخرجت على الناس وودعوها وودعتهم ، وقالت : يابنيّ تعتّب بعضنا على بعض استبطاءً واستزادةً ، فلا يعتدّنّ أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك ، **إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها ، وإنه عندي على معتبتي لمن الأخيار .**

وقال علي : **صدقت والله وبرت ، ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة .**

وخرجت يوم السبت لغرّة رجب سنة ست وثلاثين ، وشيعها

---

(١) الطبري ٤/٥٣٤ .

علي أميالاً وسرّح بنيه معها يوماً[1] ، وقصدت مكة فأقامت فيها إلى الحج ، ثم رجعت إلى المدينة المنورة بعد طول غياب .

التهمة الظالمة :

لابد لنا أخيراً بعد أن بيّنا طبيعة العلاقة بين السيدة وعلي رضي الله عنهما قبل الخلافة وأثناءها ، أن ندفع عن السيدة تهمة جائرة ظالمة ، وجهها إليها بعض المؤرخين المتعصبين لأهوائهم ، والتي تلقفها الأستاذ الأفغاني فأثبتها في كتابه قائلاً : فلئن كانت عائشة منطوية لعثمان على خير ومحبة وتوقير ، وبالجملة على الرضى ، إنها لعلى خلاف ذلك مع علي ، إنها لم تكن تطيب نفسها له بخير ، وفي الوسع أن نقول : إن الجفاء هو الذي ساد علائقها قبل الخلافة في الأعم الأغلب[2] .

ومرة ثانية نعود لمناقشة الأفغاني في حكمه هذا الذي أصدره على السيدة ، فقد أبعد فيه النجعة كثيراً ، وأساء الظن بالسيدة ، واتهمها تهمة جائرة باطلة ، ويكفي لدفعها عن السيدة ما سبق بيانه في البحث الماضي ، ومع ذلك نناقش الأستاذ الأفغاني في أهم ما تمسك به من الأمور التي تصور أنها تصلح لتأييد رأيه .

---

(١) الطبري ٤/٥٤٤ .

(٢) عائشة والسياسة .

علي وأمهات المؤمنين :

زعم الأفغاني أن علياً رضي الله عنه كان يتدخل بين أمهات المؤمنين في الغيرة التي حدثت بينهن ، وأن هواه كان مع المنافسات للسيدة عائشة ، فقال : لم يجتمع أزواج النبي ﷺ على شيء اجتماعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة ، لما خصها به النبي ﷺ من محبة ؛ إذ حلّت من قلبه في المنزلة التي لا تسامى ، والغيرة بين الضرائر أمر فطري مألوف قل أن تتنزه عنه امرأة ، وكان علي وزوجه فاطمة بنت الرسول ﷺ يحاولان حمل الرسول ﷺ على التخفيف من حبه لعائشة ، ويسفران لبقية أزواجه بما يرضيهن ويغضب عائشة ، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفره أنثى البتة .

ذكروا أن الغيرة اشتعلت يوماً في صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبي ﷺ لعائشة ، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة ، وجعل النبي ﷺ ينهاها فتأبى ، وعاين النبي ﷺ غلياناً في صدر عائشة على هذا العدوان ، فرأى من الحكمة أن ينفس عنـــه بالقصاص العادل ، فأمر عائشة بسبها كما سبتها ، فانطلقت أم سلمة إلى علي وفاطمة — وكانا يخصانها بعطف ورعاية ، وبقيت أم سلمة في حزب علي حتى ماتت — فقالت : إن عائشة سبتها ، وقالت لكم ، وقالت لكم ، فكره ذلك علي ، وقال لفاطمة :

اذهبي إلى النبي فقولي : إن عائشة قالت لنا وقالت لنا ... فأتته فذكرت ذلك له ، فقال النبي ﷺ : « إنها حِبَّة أبيك ورب الكعبة » ، ثم قال الأفغاني : وكأن هذا الدرس لم يرق لعلي ، فقال للنبي ﷺ : أما كفاك الآن ، قالت لنا عائشة وقالت لنا ، حتى أتتك فاطمة فقلت لها : إنها حبة أبيك ورب الكعبة[1] .

نقل الأفغاني هذا عن كتاب السمط الثمين ، وكان عليه أن يفحص متن الحديث قبل إثباته في كتابه وفاء لما التزمه في مقدمة كتابه ، فهل يسمح لنا الأفغاني أن نأخذ عليه ما أخذه على المتشددين الذين قالوا له لاحق لك في امتحان المتن . ولو أن الأفغاني فحص المتن لوجد فيه أموراً لاتصدق ، ففيه نسبة الكذب إلى إحدى أمهات المؤمنين ، وهو أمر لايصدق ، كما أن فيه مراجعة علي للنبي ﷺ في شأن من خصوصياته وهو أمر لايصدق ، ولايصدر مثل ذلك عن علي رضي الله عنه .

وهذه الرواية من ناحية السند ضعيفه أيضاً ، فقد أخرجها أبو داود في سننه بالشكل التالي : حدثنا ابن عون ، حدثني علي بن زيد بن جدعان ، عن أم محمد امرأة أبيه — قال ابن عون : وزعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين — قالت :

(١) عائشة والسياسة .

قالت أم المؤمنين : دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندنا زينب بنت جحش ، فجعل يصنع شيئاً بيده ، فقلت بيده حتى فطّنته لها ، فأمسك ، وأقبلت زينب تقحم لعائشة – أي تتعرض لها بالشتم – ، فنهاها ، فأبت أن تنتهي ، فقال لعائشة : « سبّيها » فسبتها فغلبتها ، فانطلقت زينب إلى علي فقالت : إن عائشة وقعت بكم وفعلت ، فجاءت فاطمة فقال لها : « إنها حبة أبيك ورب الكعبة » فانصرفت ، فقالت لهم : إني قلت كذا وكذا ، فقال لي كذا وكذا ، قال : وجاء علي إلى النبي ﷺ فكلمه في ذلك[1] .

ففي السند علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف عند المحدثين[2]، وأم محمد امرأة أبيه ، مجهولة ، وقد كان ابن عون يشك في صحة دخولها على السيدة لذلك قال : وزعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين .

ولا بد أن يلاحظ القارىء الخطأ في نقل صاحب السمط الثمين للحديث ، فهو يتصل بالسيدة زينب لا بالسيدة أم سلمة . وليس من المعقول أن تكذب السيدة زينب وتذهب إلى علي وتقول له : إن عائشة وقعت بكم وفعلت ، والسيدة زينب

---

(١) أبو داود ٢٧٥/٤ .

(٢) انظر المغني في الضعفاء .

مشهورة بشدة الورع حتى شهدت لها عائشة بذلك بقولها الذي مر معنا في حديث الإفك : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال : يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يارسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً ، قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ فعصمها الله بالورع .

وفضلاً عن كل هذه العلل القادحة في متن الحديث وسنده فهو منكر لمخالفته للحديث الصحيح الذي سبق ذكره في بحث الزوجة الغيرى ، فارجع إليه تجد فرقاً كبيراً بين هذا وذاك ، ولن تجد في كل حوادث الغيرة بين أمهات المؤمنين أي تدخل لعلي رضي الله عنه في ذلك .

موقف علي في حادث الإفك :

لعل أهم حجة يتمسك بها الأفغاني لزعمه موقف علي رضي الله عنه من السيدة في حديث الإفك الذي سبق ذكره ، وقد مر معنا أن علياً رضي الله عنه قال للنبي ﷺ حين استأمره في فراق أهله بعد أن استلبث الوحي عليه : يا رسول الله لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدقك .

وزادت بعض الروايات أنه رضي الله عنه ضرب الجارية وهو يقول : اصدقي رسول الله فتقول : والله ما أعلم إلا خيراً .

علق على هذا الأفغاني فقال : وإن مع عائشة الحق كل الحق في ألا تنسى له تلك البادرة التي كادت تعصف بروحها عصفاً لولا لطف الله بنبيه وبها ، فأنزل عليه براءتها ، تتلى في القرآن حتى يوم الناس هذا ... ومع أني لست أشك في أن علياً صدر في هذا الرأي عن غيرة بالغة على النبي ﷺ وبيته ، مع ذلك أقرر أن المأمول من علي غير هذا ... وأظنك تذهب معي أن النتيجة المحتمة لموقف علي هذا من عائشة أن يسود الجفاء علائقها مدى الحياة[1] .

وتعقيباً على هذا أقول : لا شك أن كل إنسان لا يعرف أخلاق السيدة ومناقبها لابد أن يذهب مذهب الأفغاني ، وله العذر في ذلك ، لكن الأستاذ الأفغاني لا عذر له فيما ذهب إليه ، لأنه كما قال : أمضى عشر سنوات في دراسة السيدة ، فمثله لا تخفى عليه سيرة السيدة وأخلاقها ومناقبها ، فكيف رضي لها هذه النتيجة ? !!! .

ألم يطلع الأستاذ على موقف السيدة من حسان بن ثابت الذي كان أحد الخائضين في حديث الإفك ? وهل يُقارن موقف علي رضي الله عنه الذي حمله عليه ترجيح جانب النبي ﷺ ، لما رأى عنده من القلق والغم بسبب القول الذي قيل وكان ﷺ شديد الغيرة ، فرأى علي أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها إلى أن يتحقق براءتها فيمكن رجعتها[2] ؛ هل

(١) عائشة والسياسة .
(٢) انظر فتح الباري ٣٥٧/٨ .

يقارن هذا الموقف مع موقف حسان عندما خاض فيما خاض به من حديث الإفك ؛ ومع ذلك لم تحقد السيدة على حسان ، وحملتها أخلاقها الرفيعة أن تقف منه موقف المتسامح ، حتى كانت تنهى عن سبه والإساءة إليه وتحترمه ، ففي صحيح البخاري عن عروة أنه قال : ذهبت أسبُّ حسان عند عائشة ، فقالت : **لاتسبه فإنه كان ينافح عن رسول الله ﷺ** . وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : كانت عائشة تقول : **لا تقولوا لحسان إلا خيراً ، فإنه كان يهاجي عن النبي ﷺ ويهجو المشركين** ، قال : وكان حسان إذا دخل على عائشة ألقت له وسادة فجلس عليها (١) . أفيعقل أن تقدر السيدة مواقف حسان من النبي ﷺ ، فتغضي عن إساءته البالغة لها ، ولاتقدر مواقف علي رضي الله عنه من النبي ﷺ وبلاءه وجهاده في سبيل الاسلام ؟ !!!

فما تصوره الأفغاني ليس صحيحاً ، والسيدة كانت على علاقة طيبة مع علي رضي الله عنهما ولابد أن يزيد الموقف الكريم الذي وقفه علي منها بعد يوم الجمل - كما سبق بيانه — من مودتها له ، ولابد أنها حزنت عليه حزناً شديداً عندما وصل نعيه إلى المدينة المنورة(٢) .

---

(١) المصنف ١١/٢٣٧ .

(٢) ذكر صاحب العقد الفريد خبراً يصف حزن السيدة الشديد على علي رضي الله عنه ، لم نثبته لأننا لانثق بما تنفرد بروايته الكتب الأدبية .

السيدتان :

لا بد أن أضيف هنا أن السيدة عائشة كانت على علاقة حسنة ومودة عالية مع السيدة فاطمة رضي الله عنها ، يدل على ذلك ثناء السيدة عائشة على السيدة فاطمة في الحديث التالي :

قالت عائشة : اجتمع نساء النبي ﷺ فلم يغادر منهن امرأة ، فجاءت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشية رسول الله ﷺ فقال : « مرحباً بابنتي » فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ، ثم إنه أسرّ إليها حديثاً ، فبكت فاطمة : ثم إنه سارّها فضحكت أيضاً ؛ فقلت لها : ما يبكيك ؟ فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ ، فقلت : ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن ؛ فقلت لها حين بكت : أخصك رسول الله ﷺ بحديثه دوننا ثم تبكين ، وسألتها عما قال ؟ فقالت : ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ ، حتى إذا قبض سألتها ، فقالت : إنه كان حدثني « **أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة ، وأنه عارضه به في العام مرتين ، ولاأراني إلا قد حضر أجلي ، وإنك أول أهلي لحوقاً بي ، ونعم السلف أنا لك** » **فبكيتُ لذلك ثم إنه سارني فقال : « ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ــ أو ــ سيدة نساء هذه الأمة »** فضحكت لذلك[1] .

---

(١) رواه مسلم .

ولولا أن السيدة عائشة حدثت هذا الحديث لما تمكن جمهور العلماء من القول بفضل السيدة فاطمة رضي الله عنها على جميع النساء نظراً لقول النبي ﷺ في حديث آخر : « **حسبك من نساء المؤمنين : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام** »(١) .

فلا يستطيع أي متأمل لهذا الحديث أن يجزم بفضل واحدة منهن على الأخريات ، وقد جعلتنا السيدة عائشة نجزم بفضل السيدة فاطمة رضي الله عنها عليهن جميعاً بما روته لنا في الحديث المتقدم ذكره .

في عهد معاوية :

السيدة بعد يوم الجمل :

تأثرت السيدة عائشة رضي الله عنها بيوم الجمل كثيراً ، وكان بالنسبة لها بشكل خاص مأساة مروعة ، أصيبت فيه بخيبة أمل مريرة ، فقد خرجت تسعى لرأب صدع الأمة وإصلاحه ، فازداد الصدع واتسع الخرق ، واجتلد المسلمون أمام عينيها ، وسفكوا دماء بعضهم بين يديها ، وقد صدق الأستاذ الأفغاني عندما قال : **قلبتُ صفحات التائبين والنادمين ، فما رأيت حسرة أشد**

---

(١) متفق عليه من حديث أنس .

مـن حسرتها ، ولاتوبة أصدق ولا أخلص مـن توبتها ، ولا ندماً أعظم إيلاماً من ندمها ، لقد قتلها الندم قتلاً ، فما أكثر ما تمنت أن لم تكن خُلقت ، وما أكثر ما تمنت أن تكون حجراً أو مَدَرة ، وكانت تكثر أن تقول : لأن أكون قعدت في منزلي عن سيري إلى البصرة أحب إلي أن يكون لي عشرة من الولد كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام[1] ، وتقول أيضاً : ياليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما علي ، ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين سنة ، وكانت كلما قرأت قوله تعالى: [وقرن في بيوتكن] تبكي حتى تبل خمارها[2] ، وتبكي أيضاً حينما تتذكر أحداث هـذا اليوم . أخرج الطبري عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه عن جده قال : كان عمرو بن الأشرف أخذ بخطام الجمل ، لايدنو منه أحد إلا خبطه بسيفه ، إذ أقبل الحارث بن زهير الأزدي ، وهو يقول :

يا أمنا يا خير أم نعلم أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلى هامته والمعصم

فاختلفا ضربتين ، فرأيتها يفحصان الأرض بأرجلهما حتى ماتا ، فدخلت على عائشة رضي الله عنها بالمدينة ، فقالت : من أنت ؟

---

(١) عائشة والسياسة عن الطبقات .

(٢) المرجع نفسه .

قلت : رجل من الأزد أسكن الكوفة ، قالت : أشهدتنا يوم الجمل ؟ قلت : نعم ، قالت : ألنا أم علينا ؟ قلت : عليكم ، قالت : أفتعرف الذي يقول : يا أمنا يا خير أم نعلم ؟ قلت : نعم ذاك ابن عمي ، فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت[1] .

ولزمت السيدة حجرتها وانقطعت للعبادة ، وقسمت ليلها ونهارها بين صلاة وصيام ، واستغفار وصدقات ، ونشر علم وبيان سنة .

علاقتها مع معاوية :

ولم تكن علاقة السيدة مع معاوية كما كانت مع الخلفاء الراشدين ، ورغم أن معاوية حرص حرصاً شديداً على أن يحسن علاقته مع السيدة ، فقد حدثت عدة حوادث استوجبت تعكير العلاقة بينهما :

منها : مقتل أخيها محمد بن أبي بكر سنة ثمان وثلاثين في مصر ، وقد كان والياً لعلي عليها ، فثار عليه الموالون لمعاوية بزعامة معاوية بن حديج السكوني ، وأمدهم معاوية بجيش كثيف بقيادة عمرو بن العاص ، فهزم جيش محمد بن أبي بكر ووقع أسيراً في يد معاوية بن حديج ، فقتله ثم ألقاه في جيفة حمار فأحرقه بالنار ، فلما بلغ عائشة مقتله جزعت عليه جزعاً شديداً ، وقنتت عليه في دبر الصلاة تدعو على معاوية وعمرو ، ثم قبضت

---

(١) الطبري ٤/٥٢٠ .

عيال محمد إليها ، فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها [1].
والجدير بالذكر أن السيدة لم يمنعها قتل معاوية بن حديج أخاها من الثناء عليه حين بلغها حسن معاملته لرعيته ، فلما دخل عليها عبد الرحمن بن شُماسة سألته : ممن أنت ؟ قال : رجل من أهل مصر ، فقالت : كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ فقال : مانقمنا منه شيئاً ، إن كان ليموت للرجل منا البعير فيعطيه البعير ، والعبد ، فيعطيه العبد ، ويحتاج إلى النفقة ، فيعطيه النفقة . فقالت : **أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به »** [2]

ومنها : منع مروان بن الحكم — وكان والياً على المدينة من قبل معاوية — أن يدفن الحسن بن علي رضي الله عنهما في الحجرة الشريفة بعد أن أذنت السيدة بذلك ، وقد أصر الحسين على دفنه في الحجرة الشريفة ، وكادت تقع فتنة لولا أن سعد بن أبي وقاص وأبا هريرة وجابر وابن عمر رضي الله عنهم أشاروا على الحسين ألا يقاتل ، فامتثل ودفن أخاه قريباً من قبر أمه

(١) الطبري ٥/١٠٥ .
(٢) رواه مسلم .

فاطمة بالبقيع رضي الله عنهم[1] . وإذنُ السيدة بدفن الحسن في حجرتها دليل على حسن علاقتها معه ، خلافاً لما تصوره الأفغاني بقوله : ولعل آخــــر تعبير عن موقفها السلبي من علي بن أبي طالب انقباضها عن ولديه الحسن والحسين ، فلقد كانت تحتجب منهما وهما لها من المحارم[2] . وقد احتج الأفغاني لهذا بما أخرجه ابن سعد من طريق ابن أبي سَبرة أن عائشة كانت تحتجب من حسن وحسين ، وأن ابن عباس قال : إن دخولهما عليهما لحلٌ[3] . ولكن ابن سعد أخرج بعد ذلك من طريق سفيان ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر قال : كان حسن وحسين لايدخلان على أزواج النبي ﷺ ، فقال ابن عباس : أما إن دخولهما على أزواج النبي لحل لهما[3] . ولا شك أن الرواية الثانية أصح لأن سفيان بن عيينة أوثق عند المحدِّثين من ابن أبي سَبرة ، وفيها التصريح بأن الحسن والحسين لم يكونا يخصان السيدة بالامتناع عن الدخول عليها ، وإنما كانا لايدخلان على جميـــع أُمهات المومنين .

ومنها : ما حدث بين السيدة ومروان بن الحكم ، عنـدما أراد معاوية أن يستخلف ولده يزيد وأن يستوثق له في ذلك ، فكتب

(١) انظر البداية والنهاية .

(٢) عائشة والسياسة .

(٣) الطبقات ٧٣/٨ .

إلى مروان – عامله على الحجاز – فجمع مروان الناس فخطبهم ، فذكر يزيد ودعا إلى بيعته ، فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر: أجئتم بها هرقلية ؟ ، تبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : خذوه، فدخل بيت عائشة ، فلم يقدروا عليه ، فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه : [والذي قال لوالديه أُفٍ لكما أتعدانني..] فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري ، وفي رواية : كذب والله ما نزلت فيه ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، ولكن رسول الله ﷺ لعن أبا مروان ومروان في صلبه [1] .

وكان معاوية يترضّاها ، فيصلها بصلات جسيمة ، قال عروة: ما كانت عائشة تستجد ثوباً حتى ترقع ثوبها وتنكسه ، ولقد جاءها يوماً من عند معاوية ثمانون ألفاً ، فما أمسى عندها درهم ، قالت لها جاريتها : فهلا اشتريت لنا منه لحماً بدرهم ؟ قالت: **لو ذكرتيني لفعلتُ** [2] .

ويكتب لها مستنصحاً مسترشداً . ففي سنن الترمذي أن معاوية كتب إلى عائشة أُم المؤمنين رضي الله عنها : أن اكتبي إلي كتاباً ولا تكثري عليّ ، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى

(١) انظر صحيح البخاري وفتح الباري ٤٤٣/٨ .
(٢) الترغيب والترهيب ١٦٦/٤ .

معاوية : سلام عليك ، أما بعد : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« من التمس رضاء الله بسخط النـــاس ، كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله ، وكله الله إلى الناس »** والسلام عليـك . وورواية البزار بلفـظ : **« من طلب محامد الناس بمعاصي الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه »**[1] .

ومع ذلك فقد أنكرت السيدة على معاوية بعض تصرفاته ، التي رأت فيها مجاوزة لحدود الشرع ، ولعل أعظم القضايا الـتي اشتد فيها إنــكار السيدة على معـاوية ، قضيـة قتل حُجْر بن عدي وأصحابه .

وقد لخص التابعي الجليل محمد بن سيرين هذه القضية فقال : خطب زياد — ابن أبيه والي الكوفة من قبل معاوية — يوماً في الجمعة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة ، فقال له حجر بن عدي : الصلاة ، فمضى في خطبته ، ثم قال : الصلاة ، فمضى في خطبته ، فلما خشي حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من الحصى وثار إلى الصلاة ، وثار الناس معه ، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس ، فلما فرغ من صلاته كتب إلى معاوية في أمره ، وكثّر عليه . فكتب إليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم احمله

---

(١) مسند عائشة .

إليّ ، فلما جاء كتاب معاوية أراد قوم حجر أن يمنعوه ، فقال: لا ، ولكن سمع وطاعة ، فشد في الحديد ثم حمل إلى معاوية، فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال له معاوية : أمير المؤمنين ، أما والله لا أقيلك ولا أستقيلك ، أخرجوه فاضربوا عنقه ، فأخرج من عنده ، فقال حجر للذين يلون أمره : دعوني حتى أصلي ركعتين ، فقالوا : صل ، فصلى ركعتين خفف فيهما ، ثم قال : لولا أن أن تظنوا بي غير الذي أنا فيه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا ، ولئن لم يكن فيما مضى من الصلاة خير فما في هاتين خير ، ثم قال لمن حضره من أهله : لاتطلقوا عني حديداً ، ولاتغسلوا عني دماً فإني أُلاقي معاوية غداً على الجادة ، ثم قُدِّم فضربت عنقه . وكان محمد إذا سئل عن الشهيد يُغَسَّل ؟ حدثهم حديث حجر [١] .

وأخرج الطبري أيضاً من طريق أبي مِخْنف [٢] أن عائشة رضي الله عنها بعثت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية في حجر وأصحابه ، فقدم عليه وقد قتلهم ، وأن عائشة قالت : لولا أنا لم نغير شيئاً إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه

---

(١) الطبري ٥/٢٥٦ .

(٢) اسمه لوط بن يحيى : قال الذهبي : ساقط ، تركه أبو حاتم ، وقال الدارقطني : ضعيف . انظر المغني .

لغيّرنا قتل حجر ، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حجّاجاً معتمراً . ولما حج معاوية مرّ على عائشة فاستأذن عليها فأذنت له ، فلما قعد قالت له : أأمنت أن أُخبىء لك من يقتلك[1] ؟ قال : بيتَ الأمن دخلت ، قالت : يامعاوية أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه ؟ قال : لست أنا قتلتهم إنما قتلهم من شهدعليهم[2].

وفي رواية أخرى عن محمد بن سيرين أنهـــا قالت : يامعاوية أين كان حلمك عن حجر ، فقال : يا أم المؤمنين لم يحضرني رشيد . قال ابن سيرين : فبلغنا أنه لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول : يومي منك ياحجر يوم طويل[3] .

وفاتها رضي الله عنها :

في شهر رمضان المبارك من السنة الثامنة والخمسين للهجرة ، مرضت السيدة عائشة رضي الله عنها مرض الوفاة ، فأوصت ألا تُتبعوا سريري بنار ، ولاتجعلوا تحتي قطيفة حمراء[4] . ولما اشتد المرض عليها استأذن عليها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، فأكبّ عليها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن ، فقال : هذا

(١) تذكره بقتل أخيها محمد .

(٢) الطبري ٥/٢٧٩ .

(٣) المرجع نفسه ٥/٢٥٧ .

(٤) الطبقات ٨/٧٦ .

عبد الله بن عباس يستأذن عليك ، فعرفت أنه يريد أن يثني عليها ويزكيها ، فقالت : دعني من ابن عباس فإنه لاحاجة لي به ولا بتزكيته ، فقال : يا أمتاه إن ابن عباس من صالحي بنيك يسلم عليك ويودعك ، قالت : فأذَنْ له إن شئت ، فلما أن سلم وجلس قال : أبشري ، قالت : بم ؟ قال : ما بينك وبين أن تلقي محمداً صلى الله عليه وسلم والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد ، كنتِ أحبُ نساء رسول الله إلى رسول الله ولم يكن رسول الله يحب إلا طيباً ، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء ، فأصبح رسول الله ليطلبها حين يصبح في المنزل ، فأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله أن تيمموا صعيداً طيباً ، فكان ذلك من سببك وما أذن الله لهذه الأمة من الرخصة ، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات جاء بها الروح الأمين ، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله يذكر فيه إلا هي تتلى فيه آناء الليل والنهار . فقالت : دعني منك يا ابن عباس فوالذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً .

وفي رواية ثانية أنه قال لها : ما سميتِ أم المؤمنين إلا لتسعدي وإنه لأسمك قبل أن تولدي[1] .

وتوفيت رضي الله عنها ليلة الثلاثاء لسبع عشرة من شهر

---

(١) الطبقات ٧٦/٨ ، وأخرج البخاري بعضه .

رمضان ، ودفنت من ليلتها بعد صلاة الوتر ، وهي يومئذ بنت ست وستين سنة[1] وصلى عليها أبو هريرة رضي الله عنه ، فاجتمع الناس ونزل أهل العوالي وحضروا فلم تُرَ ليلة أكثر ناساً منها، ونزل في قبرها عروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد ، وعبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عبد الرحمن[2] .

ودفنت في البقيع ، وقد أوصت أن تدفن فيه ، فقد قالت لعبد الله بن الزبير : **لا تدفني معهم وادفني مع صواحبي بالبقيع ، لاأزكى به أبداً**[3] .

ولما علم عبيد بن عمير بوفاتها قال : **أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه** . ومر معنا قول أم سلمة حين علمت بوفاتها : **لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أباها** .

---

(١) الطبقات ٨/٧٦ .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) صحيح البخاري ، ومعناه : لا يثنى علي بسببه صلى الله عليه وسلم ، وأنا في نفس الأمر يحتمل ألا أكون كذلك ، وهذا منها على سبيل التواضع وهضم النفس . انظر فتح الباري ٣/٢٠٤ ، وقولها : (لا تدفني معهم) يغاير قولها عندما استأذن عمر ليدفن في الحجرة : (كنت أريده لنفسي) لأنه يدل على أنه لم يبق ما يسع إلا موضع قبر واحد ، والجمع بينها أنها كانت أولاً تظن أنه لا يسع إلا قبراً واحداً ، فلما دفن عمر ظهر أن هناك وسعاً لقبر آخر . انظر فتح الباري ٣/٢٠٥ .

الفصل الرابع

مناقبها وفضائلها

تمهيـــد

- الزهد
- العبادة
- السخاء والجود
- الورع
- العلم : التلميذة النبوية - معلمة العلماء - السيدة المفسرة
السيدة المحدثة- السيدة الفقيهة- معرفتها بالطب والأنساب .
أشهر تلاميذها : عُروة بن الزبير ، والقاسم بن محمد .
أشهر تلميذاتها : عمرة بنت عبد الرحمن - معاذة العدوية .
- الأدب : مؤدبة الأدباء - من روائع أدبها .

مناقبها وفضائلها

تمهيد :

خص الله سبحانه وتعالى السيدة عائشة بكثير من الفضائل والمناقب ، مر معنا بعضها في الفصول السابقة ، ولابد لنا لاستكمال دراسة السيدة عائشة رضي الله عنها من الوقوف عند أبرز خصائص شخصيتها ، ويبدو لنا من خلال دراستنا لحياتها أن : الزهد والورع ، والعبادة الكثيرة ، والسخاء والجود، والعلم والأدب ، هي المعالم الكبرى في شخصية السيدة رضي الله عنها .

الزهد :

مر معنا وصف لحياة السيدة عائشة رضي الله عنها في كنف النبي ﷺ ، وقد ثبتت السيدة على شظف هذه الحياة وقسوتها فلم تغير منها شيئاً ، وظلت كما وصفها أبو نعيم في الحلية : **كانت للدنيا قالية ، وعن سرورها لاهية ، وعلى فقد أليفها باكية .**

لقد أحبت السيدة هذه الحياة وعشقتها ، لأنها الحياة التي

عاشتها معه ﷺ ، وهي الحياة التي تجعلها تلحق بالنبي ﷺ الذي أوصاها قائلاً : إذا أردت اللحوق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه ، قال عروة[1] : فما كانت عائشة تستجدّ ثوباً حتى ترقع ثوبها وتنكسه[2] .

ومن المعلوم أن الزهد ترك الميل إلى الدنيا والإعراض عنها وخلوُّ القلب مما خلت منه اليد ، وقد بلغ زهد السيدة أعلى درجات الزهد بإعراضها عن الدنيا وبإقبالها على ربها بكثرة عبادتها ، وبعظيم سخائها وجودها .

عبادتها :

تأثرت السيدة كثيراً بعبادة النبي ﷺ ومنهجه فيها ، لأنها كانت ألصق الناس به ﷺ ، وأكثرهم اطلاعاً على عبادته الخاصة به عليه الصلاة والسلام ، وقد نقلت السيدة للناس في الأحاديث الكثيرة التي رويت عنها صورة كاملة لعباداته الخاصة عليه الصلاة والسلام .

والسمة البارزة في منهج عبادة النبي ﷺ ثباتهُ على عبادته

---

(١) أخرجه الترمذي .
(٢) تحفة الأحوذي .

ودوامُه عليها دون انقطاع ، وكثيراً ما كانت السيدة تقول إذا سُئلتْ عن عبادة النبي ﷺ : كان عمله ديمة ، وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع ، وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه[1] .

ولذلك كانت رضي الله عنها تداوم على كل نوافل العبادات التي كانت تؤديها ، وبخاصة صلاة الليل ، فكانت لاتدعها وتنصح بالمداومة عليها . أخرج أحمد عن عبد الله بن قيس قال : قالت لي عائشة : لا تدَعْ قيام الليل ، فإن رسول الله ﷺ كان لايدعه ، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً[2] .

ويبدو من الحديث التالي أنها كانت تطيل الصلاة كثيراً ؛ أخرج أحمد عن عبد الله بن أبي موسى قال : أرسلني مدرك - أو ابن مدرك - إلى عائشة أسألها عن أشياء ، قال : فأتيتها ، فإذا هي تصلي الضحى ، فقلت أقعد حتى تفرغ ، فقالوا : **هيهات**[3] . كما كانت كثيرة الدعاء والتضرع في صلاة النافلة إذا مرت بآية وعيد كقوله تعالى : [فمَنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم] فقد سُمعت

---

(١) أي داوموا عليه ، والحديث متفق عليه .

(٢) المسند ٦/٢٤٩ .

(٣) المسند ٦/١٢٥ .

وهي تكرر وتبكي بعد قراءتها لها : «مَنَّ عليَّ وقني عذاب السموم»[1] .

وتحرص على أن تؤدي الصلوات المكتوبة بجماعة ، فتصلي بصلاة الإمام في بيتها وهو في المسجد (المصنف ٨٢/٢) لأن حجرتها متصلة بالمسجد ، وربما اجتمع عندها النساء فأمّتهن وقامت بينهن في وسط الصف (المصنف ١٤١/٢) بعد أن تؤذن وتقيم (المصنف ١٢٦/٢) .

أما عبادتها في الصوم ، فقد كانت شغوفة به جداً حتى كانت تسرد الصوم ، فقد أخرج ابن سعد عن القاسم أنها كانت تصوم الدهر[2] وتتحمل الصوم في أيام الحر الشديد مهما بلغ منها الجهد والتعب .

أخرج أحمد أن عبد الرحمن بن أبي بكر دخل على عائشة يوم عرفة ، وهي صائمة ، والماء يرش عليها ، فقال لها عبد الرحمن : أفطري ، فقالت : أفطر وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن صوم يوم عرفة يكفر العام الذي قبله »[3] .

---

(١) الحلية والسمط الثمين .

(٢) الطبقات ٦٨/٨ .

(٣) والظاهر أنها لم تكن محرمة في الحج لأن صيام يوم عرفة مستحب لغير الحجاج ، ومكروه للحجاج لأنه قد يضعفهم عن أداء المناسك ، وقد روت السيدة أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن صيام يوم عرفة لعرفات . أخرجه الطبراني في الأوسط . مسند السيدة .

وقد بلغ شغفها بالصوم أنها كانت تصوم أيام منى[1] وتصوم في السفر كما في المصنف ٥٦١/٢ .

وأما الحج ، فقد حجَّت واعتمرت مرات كثيرة ، حجت مع النبي ﷺ حجة الوداع ، وأتاها وهي محرمة دم الحيض ، فأمرها النبي ﷺ أن تؤدي المناسك عدا الطواف بالبيت ، وفاتتها العمرة قبل الحج فاستأذنت النبي ﷺ لتعتمر بعد الحج فأذن لها وأرسلها مع أخيها عبد الرحمن إلى التنعيم - أول أرض الحرم - فأحلَّت منها بعمرة ، ولا يزال مسجد التنعيم حتى الآن يدعى بمسجد عائشة .

وحجت واعتمرت رضي الله عنها بعد وفاته ﷺ أكثر من مرة ، وقد مرّ معنا حجها في عهود الخلفاء ، وكانت تطوف حَجْرةً من الرجال لاتخالطهم ، وتجاور في جوف ثبير - جبل قريب من مكة - في قبة تركية لها غشاء[2] .

والجدير بالذكر أن السيدة عائشة سألت النبي ﷺ قائلةً :

---

(١) البخاري ، والجمهور على المنع من صيام أيام منى ، وهي أيام التشريق التي بعد يوم النحر ، لما في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال : « أيام التشريق أيام أكل وشرب » وقد أجاز بعضهم صيامها للتمتع الذي لايقدر على الهدي . انظر فتح الباري ٢١٠/٤ .

(٢) البخاري ، ومعنى حَجْرة من الرجال : أي معتزلة من الرجال .

ترى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : « لا ولكن أفضل الجهاد حجٌ مبرور[1] » . وفي رواية أخرى قالت : يا رسول الله على النساء جهاد ؟ قال : « **نعم عليهن جهاد لاقتال فيه : الحج والعمرة[2]** » ؟.

سخاؤها وجودها :

يستدعي الزهد خلو القلب مما خلت منه اليـــد ، والسيدة كانت خالية القلب مما في يدها فضلاً عما خلت منه يدها ، وبلغت بهذا أعلى درجات الجود والسخاء ، فكل مالٍ يصل إلى يدها تتصدق به سواء كان قليلاً أو كثيراً ، تطبيقاً لما سمعت من النبي ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة[3] » . فما أكثر ما تصدقت في حياة النبي ﷺ بالتمرة والتمرتين والثلاث ، وتتحدث بذلك فتقول : جاءتني امرأة معها ابنتان تسألني ، فلم تجد عندي غير تمرة واحدة ، فأعطيتها ، فقسمتها بين ابنتيها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ فقال : « من يلي من هذه البنات شيئاً فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار[4] » ،وفي حديث آخر قالت :

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه ابن ماجه .

(٣) رواه أحمد .

(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري .

جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها ، فأطعمتها ثلاث تمرات ، فأعطت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها ، فاستطعمتها ابنتاها فشقّتْ التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما ، فأعجبني شأنها ، فذكرت الذي صنعت للنبي ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها من النار[1] » .

وبعد وفاة النبي ﷺ وفتح البـــلاد انهالت الهدايا والهبات الكبيرة على السيدة من كل جانب ، فكانت تقبلها ثم تتصدق بها دون أن تبقي لنفسها شيئاً ترتفق به ، ويبدو أن السيدة في أول الأمر ما كانت تقبل من أحد شيئاً سوى عطائها المخصص لها في بيت مال المسلمين ، فقد بعث إليهـا عبد الله بن عامر بنفقة وكسوة ، فقالت للرسول : أي بني لا أقبل من أحد شيئاً ، فلما خرج قالت : رُدُّوه عليَّ ، فردوه ، قالت : إني ذكرت شيئاً ، قال لي رسول ﷺ : « يا عائشة من أعطاك عطاءً بغير مسألة فاقبليه ، فإنما هو رزق عرضه الله لك »[2] .

وحرصت رضي الله عنها طيلة حياتها على البقاء على معيشتها الـتي عاشتها مع النبي ﷺ حتى تلحق به ، فقد كانت تخشى أن تقطعها الدنيا عنه وتحول شهواتها بينها وبينه عليه الصلاة والسلام ، رآها جابر

---

(١) رواه مسلم .
(٢) رواه أحمد .

وعليها ثوب مرقوع ، فقال لها : لو ألقيت عنك هذا الثوب ، فقالت له : إن رسول الله ﷺ قال : « إن سرك أن تلقيني ، فلا تلقن ثوباً حتى ترقعيه ، ولا تدخرن طعاماً لشهر » **فما أنا بمغيرة ما أمرني به حتى ألحق به إن شاء الله**[1] . لذلك كانت كلما أهدي لها شيء تذكرت معيشة النبي ﷺ فتغلبها دموعها وتبكي ، ثم تتصدق به .

أهدى لها مرة معاوية ثياباً وورقاً ـ فضة ـ وأشياء توضع في إسطوانها ، فلما خرجت عائشة نظرت إليه فبكت ، ثم قالت : **لكن رسول الله ﷺ لم يكن يجد هذا** ، ثم فرقته ولم يبق منه شيء[2] .

وأُهدي لها سلال عنب فقسمته ، ورفعت الجارية سلة ، ولم تعلم بها عائشة ، فلما كان الليل جاءت به الجارية ، فقالت رضي الله عنها : ما هذا ؟ قالت : يا سيدتي رفعت لنا كله ، قالت : **أفلا عنقوداً واحداً ! والله لا أكلت منه شيئاً**[3] . وما أكثر ما رُئيت رضي الله عنها ترقع ثوبها ، قال عروة : لقد رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً وإنها لترقع جيب درعها ، فإذا قيل لها : أليس قد أوسع الله عليك ؟ ! ! ! قالت : **إنه لاجديد لمن لا خلق له**[4] .

---

(١) الإجابة .

(٢) حلية الأولياء ٢/٤٨ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه وانظر الطبقات لابن سعد .

وتؤثر السائل على نفسها بما تفطر عليه في صيامها ، أخرج مالك في الموطأ أنه بلغه عن عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها أن مسكيناً سألها وهي صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه ، فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت : أعطيه إياه ، قالت : ففعلت ، فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت - أو إنسان - ما كان يهدي لنا ، شاة وكفنها - أي ما يغطيها من الخبز - فدعتني عائشة رضي الله عنها فقالت كلي من هذا ! هذا خير من قرصك[1] .

وربما تكون صائمة فتتصدق بالمال الذي يأتيها وتنسى أن تمسك شيئاً لإفطارها ، قال عروة : بعث معاوية إلى عائشة رضي الله تعالى عنها بمائة ألف ، فوالله ما غابت الشمس عن ذلك اليوم حتى فرقتها ، قالت مولاة لها : لو اشتريت لنا من هذه الدراهم بدرهم لحماً ، فقالت : **لو قلت قبل أن أفرقها لفعلت**[2] .

وإذا لم تجد السيدة ما تتصدق به باعت بعض ما تملك لتتصدق بثمنه ، حتى قال ابن أختها عبد الله بن الزبير في بيع أو عطاء أعطته عائشة : والله لتنتهين عائشة أو لأحجرن عليها ، فقالت : أهو قال هذا ؟ ! قالوا : نعم ، قالت : هو لله عليّ نذر ألا أكلم

(١) حياة الصحابة ٢/٣٥٣.
(٢) الحلية ٢/٤٧ .

ابن الزبير أبداً ، فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة ، فقالت : لا والله لا أشفع فيه أبداً ولا أحنث في نذري ، فلما طال ذلك على ابن الزبير كلّم المِسوَر بن مخرمة وعبد الرحمن ابن عبد الأسود - وهما من بني زهرة - وقال لهما : أنشدَكما بالله لمَّا أدخلتماني على عائشة ، فإنها لايحل لها أن تنذر قطيعتي ، فأقبل المسور وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما ، حتى استأذنا على عائشة ، فقالا : السلام عليك ورحمة الله وبركاته أندخل ؟ قالت عائشة : ادخلوا ، قالوا : كلنا ؟ قالت : نعم ادخلوا كلكم - ولا تعلم أن معهما ابن الزبير - فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة وطفق يناشدها ويبكي ، وطفق المِسوَر وعبد الرحمن يناشدانها إلا ما كلمته وقبلتْ منه ، ويقولان : إن النبي ﷺ نهى عما قد علمت من الهجرة ، فإنه لايحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ ، فلما أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج ، طفقت تذكرهما وتبكي وتقول : إني نذرت والنذر شديد ، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير ، وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبةً ، وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكي حتى تبلّ دموعُها خمارها[1] .

---

(١) رواه البخاري .

الورع :

وهو اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات ، وهو من ثمار المعرفة لله سبحانه ، فكلما ازداد العبد معرفةً لربه وقرباً منه زادت خشيته منه وزاد ورعه ، ولا شك أن السيدة عائشة رضي الله عنها ، بما هيأ الله لها من البيئة الصالحة والنشأة الطيبة ، كانت على مقام رفيع في المعرفة والخشية والورع ، وقد مر معنا صور كثيرة تدل على عظيم خشيتها وشدة ورعها .

وقد اتصفت رضي الله عنها بصفة الورع في جميع مراحل حياتها ، ها هي في حياة النبي ﷺ تمنع عمها من الرضاعة من الدخول عليها حتى يأتي النبي ﷺ فيقول لها : « فليلج عليك عمك » ومع ذلك تستفسر قائلةً : إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل ؛ فيعود ﷺ ليؤكد لها « إنه عمك فليلج عليك[1] » .
ولما طلب منها النبي ﷺ أن تمد يدها من حجرتها إلى المسجد لتناوله الخُمرة[2] ، قالت : إني حائض ، فقال ﷺ : « إن حيضتك ليست في يدك » .

ومن صور ورعها أنها منعت إدخال جارية صغيرة عليها

---

(١) متفق عليه .

(٢) السجادة الصغيرة .

قائلةً : « لا تدخلنها عليَّ إلا أن تقطعوا جلاجلها ـ أجراسها ـ سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تدخـــل الملائكة بيتاً فيه جرس[1] » .

والورع يحمل صاحبه على كثرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد كانت السيدة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر في جميع الأحوال والأوقات ، رأت امرأة بين الصفا و المروة عليها خميصة فيها صُلُبٌ ـ أي ثوب عليه خطوط متصالبة ـ فقالت لها عائشة : انزعي هذا من ثوبك فإن رسول الله ﷺ إذا رآه في ثوب قضبه[2]. ومر معنا قولها لنساء حمص عندما دخلن عليها : لعلكن من اللواتي يدخلن الحمامات[3] . . .

ومن ورعها رضي الله عنها أنها ما كانت تنسى أن توصي النساء قائلةً : مرْن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإني أستحييهم ، فإن رسول الله ﷺ كان يفعله[4] . ورأت أخاها عبد الرحمن يتوضأ ـ فكأنه أسرع ليدرك صلاة الجنازة على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ـ فقالت له : يا عبد الرحمن أسبغ الوضوء

---

(١) رواه أبو داود .
(٢) رواه أحمد ٦/٢٢٥ وهو في البخاري أيضاً .
(٣) انظر تتمته في بحث « دفاعها عن المرأة » .
(٤) رواه النسائي والترمذي .

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ويل للأعقاب من النار[1] » .

ومن ورعها أيضاً احتجابها من رجل أعمى دخل عليها ، ولما قال لها : تحتجبين مني ولست أراك : قالت : **إن لم تكن تراني فإني أراك**[2] .

ومر معنا أنها كانت في الطواف لاتخالط الرجال ، وكيف زجرت حفصة بنت عبد الرحمن عندما رأت عليها خماراً رقيقاً وكيف بادرت إلى تمزيقه وكستها بدله خماراً كثيفاً .

ومن ورعها ثناؤها على النساء في عهد النبي ﷺ لمبادرتهن إلى تنفيذ الأحكام الشرعية[3]

ولعل أبرز صور ورعها ماحكته رضي الله عنها بقولها : **كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عنه واضعةً ثوبي ، وأقول : إنما هو زوجي وأبي ، فلما دفن عمر رضي الله عنه ، والله ما دخلت إلا مشدودةً عليَّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه**[4] .

ومع شدة ورعها أنها ما كانت ترى إذا وعظت أحداً ،

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الطبقات ٦٩/٨ .

(٣) انظر دفاعها عن المرأة .

(٤) السمط الثمين .

التمسك بأسلوب التهديد والترهيب فقط ، إنما كانت ترى الجمع بين أسلوب الترغيب تارة والترهيب أخرى حتى لا يدخل اليأس والقنوط على نفس المستمع، وتنصح من يدخل عليها من الوعاظ ليلتزموا هذا الأسلوب ، دخل عبيد بن عمير على السيدة ، فسألت : من هذا ؟ فقال : أنا عبيد بن عمير ، قالت : عمير بن قتادة ؟ قال : نعم يا أمتاه ، قالت : أما بلغني أنك تجلس ويُجلس إليك ؟ قال : بلى يا أم المؤمنين ، قالت : **فإياك وتقنيط النـــاس وإهلاكهم**[1] .

العلم :

وهو أبرز صفات السيدة عائشة رضي الله عنها ، فقـد بلغ علمها ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وتفسير وحديث وفقه ، حتى ذهب الحاكم في مستدركه إلى أن ربع أحكام الشريعة نقلت عنها .

وكان الأكابر من الصحابة إذا أشكل عليهم الأمر في الدين يستفتونها فيجدون علمَه عندهـــا ، قال أبو موسى الأشعري : **ما أشكل علينا - أصحاب رسول الله ﷺ - حديث قط ، فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً**[2] .

---

(١) المصنف ٣/٢٢٠.

(٢) الإجابة ، وأخرجه الترمذي .

وقال مسروق بن الأجدع : **رأيت مشيخة أصحاب محمد ﷺ يسألونها عن الفرائض**[1] .

وحين يشكل على أهل الأمصار أمر من الأمور ، يكتبون إلى أصحاب رسول الله ﷺ في الحجاز ، ويسألونهم عن حكم الله فيه ، فكان هؤلاء إذا فاتهم علم شيء ، رجعوا إلى علماء بينهم اشتهروا بحمل العلم وفقهه كعبد الله بن عمر وأبي هريرة وابن عباس . . . ومقام السيدة بينهم مقام الأستاذ من تلاميذه ، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كل ما يتعلق بأحكام النساء ، أو بأحوال النبي ﷺ البيتية ، لايضارعها في هذا الاختصاص أحد على الإطلاق[2] ، قال الزهري : **لو جمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل**[3] .

ويصل أحياناً إلى سمع السيدة عن بعض علماء الصحابة روايات وأحكام على غير وجهها ، فتصحح لهم ما أخطأوا فيه ، أو تبيّن ما خفي عليهم ، حتى اشتهر ذلك عنها ، فصار مَنْ شكّ في رواية أتى عائشة سائلاً ، وإن كان بعيداً كتب إليها يسألها . من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم أن زياد بن أبي سفيان كتب

---

(١) الإجابة .
(٢) عائشة والسياسة .
(٣) الإجابة .

إلى عائشة ، أن عبد الله بن عباس قال : من أهدى هدياً حرم عليه ما يحرم على الحاج حتى يُنحر الهدي ، وقد بعثت بهدي فاكتبي لي بأمرك ، قالت عائشة : ليس كما قال ابن عباس ، أنا فتلت قلائد هدي رسول الله ﷺ بيدي ، ثم قلدها رسول الله ﷺ بيده ، ثم بعث بها مع أبي ، فلم يحَرَّم على رسول الله ﷺ شيء أحله الله حتى نحر الهدي . . . وأخرج البيهقي عن الزهري أنه قال : **أول من كشف الغُمَّى عن الناس وبين لهم السنة في ذلك عائشة رضي الله عنها**[1] .

ومن ذلك أيضاً رجوع أبي هريرة عما كان يرويه عن الفضل ابن عباس ، أن من أدركه الفجر وهو جنب فلا يصم ، فلما سئلت عائشة وأم سلمة ، قالتا : كان النبي ﷺ يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم ، ولما أخبر أبو هريرة قال : هما أعلم ، ثم رد ما كان يقول في ذلك[2] .

وقد ألّف الإمام بدر الدين الزركشي كتاباً ذكر فيه كل المسائل التي قيل إن السيدة عائشة استدركتها على الصحابة وسماه : (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) . فحقق في هذه المسائل ، وبين صحيحها من ضعيفها ، فجزاه الله خيراً[3] .

---

(١) الإجابة .

(٢) انظر صحيح مسلم .

(٣) لو استعرضت مسائل هذا الكتاب لوجدت أن أكثر هـذه الاستدركات التي نسبت إلى السيدة غير صحيح ، وبعضها الآخر لايخرج عن كونه إيضاحاً وتفسيراً .

التلميذة النبوية :

ثمة عدة عوامل مكّنت السيدة أن تتبوأ هذه المكانة العلمية الرفيعة ، أهمها :

١ ـ حدّة ذكائها وقوة ذاكرتها وحافظتها ، وحسبك لهذا الأمر دليلاً كثرة ماروت عن النبي ﷺ ؛ إلى جانب العدد الكبير من الأشعار والأمثال التي كانت تستشهد بها في كل مناسبة تعرض لها .

٢ ـ زواجها من النبي ﷺ في سن مبكرة ، وحياتها في كنفه ورعايته مدة بلغت ثماني سنوات وخمسة أشهر ، وكان ﷺ خلال هذه المدة حفياً بها ، كثير الاهتمام بتعليمها وإرشادها .

٣ ـ كثرة مانزل من الوحي في حجرتها حتى سميت ـ كما مر معنا ـ **مهبط الوحي** .

٤ ـ لسانها السؤول ، فقلّ أن تسمع شيئاً تستشكله ، أو ترى أمراً لاتعرفه ، إلا وتسأل مستفسرة عنه ، واشتهرت السيدة بذلك حتى قال عنها ابن أبي مليكة : كانت لاتسمع شيئاً لاتعرفه ، إلا راجعت فيه حتى تعرفه ، وأن النبي ﷺ قال : من حوسب عذّب ، قالت عائشة : فقلت : أوليس يقول الله تعالى : [فسوف يحاسب حساباً يسيراً] فقال : « إنما ذلك العرض ، ولكن من نوقش الحساب يهلك[١] » . ولذلك كانت رضي الله عنها تثني على نساء

---

(١) رواه البخاري .

الأنصار لكثرة أسئلتهن عن شؤون دينهن فتقول : **نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين**[1]. ولا شك أن العلم ، كما قال مجاهد : لايتعلمه مستحي ولامستكبر[2] .

وهذه الميزة جعلت السيدة تنفرد برواية الكثير الطيب من الأحاديث النبوية التي لم يسمعها غيرها منه عليه الصلاة والسلام ، فقد كان كبار الصحابة يهابون أن يسألوا رسول الله ﷺ ، وكان يعجبهم كما قال أنس : أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع[3] .

معلمة العلماء :

شاع علم السيدة وانتشر في الأمصار ، وسارت به الركبان ، ويمم طلاب العلم وشداة المعرفة وجوههم قِبلَ الحجرة المباركة ؛ حتى غدت أول مدارس الاسلام وأعظمها أثراً في تاريخ الفكر الاسلامي ، وقد تخرج من هذه المدرسة كبار علماء التابعين وساداتهم ، فكانت السيدة بحق معلمة العلماء ومؤدبة الأدباء .

وكانت رضي الله عنها تحتجب عن تلاميذها غير المحارم ، وربما نبهتهم بتصفيقها من وراء الحجاب ، قال مسروق : سمعت تصفيقها بيديها من وراء الحجاب[4] .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ، باب الحياء في العلم .

(٣) مسند أنس .

(٤) رواه أحمد ٣٠/٦ .

وقد اتبعت السيدة في تعليمها لتلاميذها وتلميذاتها الأساليب التربوية الرفيعة التي شهدت النبي ﷺ يمارسها في تعليمه لأصحابه .

من هذه الأساليب التأني في الكلام ليتمكن المستمع من استيعابه ، وكانت تنكر على من تسمعه يسرع في كلامه ، قال عروة : قالت عائشة : ألا يعجبك أبو فلان[1] جاء فجلس إلى جانب حجرتي يحدّث عن رسول الله ﷺ يسمعني ذلك ، وكنت أسبّح ـ أصلي ـ فقام قبل أن أقضي سبحتي ، ولو أدركته لرددت عليه ، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم[2] .

ومنها اللجوء أحياناً إلى التعليم بالأسلوب العملي ، فكثيراً ما كانت تعلم تلاميذها وتلميذاتها الأحكام الشرعية العملية ، بأن تؤديها بنفسها أمامهم ، من ذلك تعليمها لسالم سُبلان ـ وكان عبداً مملوكاً لبعض أقربائها المحارم[3] ـ كيفية الوضوء ، قال في وصف ذلك : أرتني عائشة كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ، فتمضمضت واستنثرت ثلاثاً ، وغسلت وجهها ثلاثاً ، ثم غسلت يدها اليمنى ثلاثاً واليسرى ثلاثاً ، ووضعت يدها في مقدم رأسها ثم مسحت مسحةً واحدة إلى مؤخره ، ثم أمرّتْ يديها بأذنيها ،

(١) مرادها أبو هريرة كما في رواية مسلم .

(٢) رواه البخاري .

(٣) من مذهبها جواز دخول المملوك على سيدته .

ثم موّتْ على الخدّين ، قال سالم : كنت آتيها مكاتباً ما تختفي مني ، فتجلس بين يديّ وتتحدث معي ، حتى جئتها ذات يوم ، فقلت : ادعي لي بالبركة ياأم المؤمنين ، قالت : وما ذاك ؟ قلت : أعتقني الله ، قالت : بارك الله لك ، وأرخت الحجاب دوني ، فلم أرها بعد ذلك اليوم [1] .

ولم تكن رضي الله عنها تتحرج في إجابة المستفتين عن أي مسألة من مسائل الدين ، ولو كانت تتصل بشؤون الانسان الخاصة ، تقديراً منها لمسؤوليتها عن بيان مثل هذه الأحكام التي لم يطلع عليها أحد سوى نساء النبي ﷺ . بل كانت تشجع المستفتين الذين يستحيون أحياناً من السؤال عن مثل هذه الشؤون ، وقد مر معنا قولها لأبي موسى الأشعري عندما قال لها : إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أستحييك ، فقالت : لا تستحيي أن تسألني عما كنت سائلاً عنه أمك التي ولدتك فإنما أنا أمك [2]. وربما بادرت رضي الله عنها إلى بيان مثل هذه الأحكام دون سابق سؤال إذا وجدت ثمة حاجة إلى بيانها ، قال عبد الله بن شهاب الخولاني : كنت نازلاً على عائشة فاحتلمتُ في ثوبيّ ، فغمستهما في الماء ، فرأتني جارية لعائشة فأخبرتها ، فبعثت إليّ عائشة ،

---

(١) رواه النسائي .

(٢) انظره كاملاً في بحث « في عهد عمر » .

فقالت : ما حملكَ على ما صنعت بثوبيك ؟ قلت : رأيتُ ما يرى النائم في منامه ، قالت : هل رأيت فيهما شيئاً ؟ قلت : لا ، قالت : فلو رأيت شيئاً غسلتَه ، لقد رأيتُني وإني لأحكّه من ثوب رسول الله ﷺ يابساً بظفري[1] .

والملاحظ أن السيدة لم تكن في تعليمها تكتفي بتقرير الأحكام ، إنما كانت تؤيد الأحكام بأدلتها من الكتاب أو السنة ، وقد سنّتْ في هذا ما عرف بعد ذلك بين العلماء « بالفقه الاستدلالي » ، وهو الفقه الذي يُذكر فيه مع كل فرع دليله ، ولو تأملت مسند السيدة لوجدت كل حكم صدر عنها مؤيداً بدليله ، ولعل المحاورة التالية بينها وبين تلميذ من أكبر تلاميذها في مسألة من أخطر مسائل العقيدة توضح لك أسلوب السيدة في هذا المجال :

عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة ، فقالت : ياأبا عائشة ، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : ياأم المؤمنين ، أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : [ولقد رآه بالأفق المبين . ولقد رآه نزلةً أخرى] فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ،

---

(١) رواه مسلم .

فقال : « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عِظَمُ خَلقه ما بين السماء والأرض » فقالت : أوَلم تسمع أن الله يقول : [لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير] أو لم تسمع أن الله يقول : [وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسلَ رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم] . قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : [يا أيها الرسول بلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته] . قالت : ومن زعم أنه يُخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : [قل لا يعلمَ من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله][1] .

السيدة المفسرة :

هيأ الله سبحانه للسيدة عائشة رضي الله عنها كل الأسباب التي جعلت منها أحد أعلام التفسير من أصحاب رسول الله ﷺ ، فمنذ نعومة أظفارها سمعت القرآن الكريم من فم والدها الصديق ، وقد مر معنا أنه كان كثير التلاوة للقرآن الكريم ، وقد لقي في سبيل ذلك أذىً كثيراً من مشركي قريش ، وكانت السيدة بما حباها الله – سبحانه – من ذكاء وفهم ، تعقل

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم .

ماتسمع ، دل على ذلك قولها : لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإني لجارية ألعب : [بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده[١] .

ثم انتقلت إلى بيت النبوة حيث شهدت كثيراً من أسباب النزول حتى سميت حجرتها مهبط الوحي ، وكانت أقرب الناس إلى النبي ﷺ عندما كان ينزل الوحي عليه وهو في حجرتها ، ولذلك وصفت أحواله ﷺ حين نزول الوحي عليه : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصّد عَرَقاً[٢] . وكثيراً ما كانت تسأل النبي ﷺ عن معاني الآيات القرآنية ومراد الله سبحانه وتعالى منها ، فجمعت بهذا بين شرف تلقي القرآن مباشرة من فم النبوة فور نزوله وتلقي معانيه أيضاً من النبي ﷺ ، قالت عائشة : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية [والذين يُؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجلَةٌ] أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : « لا يابنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدّقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم ،[أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون][٣] » .

---

(١) رواه البخاري .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) ابن ماجه والترمذي والآية هي ٦٠ من سورة المؤمنين .

وقالت أيضاً : سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل : [يوم تُبدَّلَ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ] فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : « على الصراط[1] » .

وجمعت إلى جانب ذلك ما يحتاجه مفسر القرآن من قوة في اللغة العربية وإحاطةٍ بطرائق العرب في كلامها وتضلّعٍ بأدب العرب في جاهليتهم من الشعر والنثر والخطب والأمثال ، فقد عرفت رضي الله عنها بفصاحة لسانها وقوة عارضتها وعلو بيانها ، وسيمر معنا تفصيل هذا الجانب من خصائصها .

وكانت رضي الله عنها تحرص في تفسير آي القرآن الكريم على أن يكون التفسير منسجماً مع أصول الاسلام وكلياته وعقائده ، ظهر لنا هذا واضحاً في المحاورة التي سبق ذكرها بينها وبين أحد تلاميذها[2] ، وأزيدك هنا محاورة أخرى بينها وبين أكبر تلاميذها وأقربهم منها عروة بن الزبير ، ليتضح لك منهج السيدة في هذا الموضوع :

قال عروة يسأل عائشة عن قوله تعالى : [حتى إذا استيأس الرسلُ وظنوا أنهم قد كُذِبُوا جاءهم نصرُنا ...][3] قلتُ :

---

(١) رواه مسلم .
(٢) انظر البحث السابق : « معلمة العلماء » .
(٣) الآية ١١٠ من سورة يوسف .

أكُذِبُوا أم كذّبُوا ؟ قالت عائشة : كُذّبُوا[1] ، قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن ، قالت : أجل لعمري لقد استيقنوا بذلك ، فقلت لها : وظنّوا أنهم قد كُذِبُوا ؟ قالت : معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذلك بربها ، قلت : فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاءُ واستأخر عنهم النصرُ ، حتى إذا استيأس الرسلُ ممن كذّبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك[2] .

كما كانت رضي الله عنها تحرص على إظهار اتفاق آيات القرآن فيما بينها واتساقها وانسجامها ، فترد الآيات الى آيات أخرى وتفسر القرآن بالقرآن ، سألها عروة عن قول الله : [وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع] فقالت : يابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليّها تشاركه في ماله ،

---

(١) هذا ظاهر في أن عائشة أنكرت القراءة بالتخفيف ، ولعلها لم يبلغها ثبوتها ممن يرجع إليه في ذلك ، وقد قرأها بالتخفيف أئمة الكوفة من القراء ، عاصم ، ويحيى بن وثاب ، والأعمش وحمزة والكسائي ، ووافقهم من الحجازيين أبو جعفر القعقاع ، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس ، ووجه قراءة التشديد مارواه النسائي عن ابن عباس قال : استيأس الرسل من إيمان قومهم وظن قومهم أن الرسل قد كذبوهم . انظر فتح الباري .

(٢) رواه البخاري .

فيعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثلَ ما يعطيها غيرُه ، فنُهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهنّ ويبلغوا بهنّ أعلى سُنّتهنّ - عادتهن في مهورهن - وأُمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهنّ ، فأنزل الله عز وجل : [ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهنّ ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن ...] قالت : والذي ذكره الله تعالى أنه يتلى عليكم في الكتاب ، الآيةُ الأولى التي قال الله فيها : [وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء] قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى : [وترغبون أن تنكحوهن] رغبة أحدكم عن اليتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنُهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن[١] .

وبهذا رسمت السيدة لكل من أتى بعدها أمثل الطرق وأقربها لفهم القرآن الكريم .

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم .

السيدة المحدثة :

هذه الصفة أبرز الصفات العلمية للسيدة عائشة رضي الله عنها على الإطلاق ، فهي تعد من كبار حفاظ السنة من الصحابة ، وتأتي في المرتبة الخامسة في حفظ الحديث وروايته ، ولم يسبقها من الصحابة سوى أبي هريرة وابن عمر وأنس بن مالك وابن عباس رضي الله عنهم ، وتمتاز السيدة عنهم بأن معظم الأحاديث التي روتها قد تلقتها مباشرة من النبي ﷺ ، أما غيرها من رواة الصحابة فقد روى بعضهم عن بعض كثيراً من الأحاديث ، وقلّ أن روت السيدة عن غير النبي ﷺ ، فهي تعد بحق أكثر الصحابة تلقياً من النبي ﷺ ، ولذلك انفردت برواية أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ لم يروها عنه غيرها ، بينما اشترك رواة الصحابة في رواية أحاديث كثيرة عنه ﷺ ، ففي مسانيدهم تجد أحاديث كثيرة مشتركة ، بينما تجد مسند السيدة مليئاً بالأحاديث التي لاتوجد في غيره إلا إذا رُويت عنها ، هذه الميزة تبين لنا فضل السيدة عائشة في نقل السنة النبوية ونشرها بين الناس ، ولولا السيدة لضاع قسم كبير من سنة النبي ﷺ وبخاصة سنته الفعلية في بيته عليه الصلاة والسلام ، فإن مسند السيدة يضم كثيراً من السنة الفعلية ، وتكاد الأحاديث التي وصفت السيدة بها سنته الفعلية تغلب على الأحاديث التي روت السيدة بها أقواله عليه الصلاة والسلام .

وأصبحت الحجرة الشريفة مدرسة الحديث الأولى ، فقصدها طلاب العلم من مشارق الأرض ومغاربها ، ليتشرفوا بزيارة النبي ﷺ ، فيأنسوا بجواره ويتبركوا بآثاره ، وينالوا بركة تلقي السنة النبوية الشريفة غضة ندية من فم السيدة التي كانت ألصق الناس بحياة النبي ﷺ ، وأقربهم منه ، وأكثرهم رؤية له عليه الصلاة والسلام ، وما كانت السيدة رضي الله عنها تضنّ على أحد منهم بشيء من العلم ، بل كانت تبذله لكل من يطلبه سواء كان سيداً أو عبداً ، عربياً أو مولى ، كبيراً أو صغيراً ، ذكراً أو أنثى ، فمن بين تلاميذها كثير من العبيد والموالي والنساء والصغار .

لذلك كان عدد الرواة عنها كبيراً ، أوصلهم الذهبي في النبلاء إلى نحو المائة ، ولو تتبع باحث كتب طبقات المحدّثين لاستطاع أن يضم إلى هؤلاء – كما يقول الأستاذ الأفغاني – أضعافهم ، وليس ذلك بكثير على من غبرت نحو خمسين عاماً ، تروي سنة رسول الله ﷺ ، وتنشر أحكام الشريعة المطهرة ، حتى أخذ عنها الرجل وابنه وحفيده وابن حفيده[1] .

والذين رووا عنها الحديث طبقات أشهرهم :

١ – من الصحابة : عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر ،

---

(١) انظر تعليقات الأفغاني على الإجابة .

وأبو هريرة ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وغيرهم .

٢ ــ ومن آل بيتها : عروة بن الزبير ابن أختها ، والقاسم ابن محمد ، ابن أخيها .

٣ ــ ومن كبار التابعين : علقمة بن قيس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والشَّعبي ، وزِرّ بن حُبيش ، ومسروق ، وعبيد ابن عمير ، وسعيد بن المسيب ، والأسود بن يزيد ، وطاووس ، ومحمد بن سيرين ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وعطاء ابن أبي رباح ، وسليمان بن يسار ، وعلي بن الحسين ، ويحيى ابن يعمر ، وابن أبي مليكة ، وأبو بردة بن أبي موسى ، وأبو الزبير المكي ، ومطرف بن الشخير ، وغيرهم .

٤ ــ ومن مواليها : أبو عمرو ، وذكوان ، وأبو يونس ، وفروخ .

٥ ــ ومن النساء : عمرة بنت عبد الرحمن ، ومعاذة العدوية ، وعائشة بنت طلحة ، وجسرة بنت دجاجة ، وحفصة بنت أخيها عبد الرحمن ، وخيرة والدة الحسن البصري ، وصفية بنت شيبة ، وغيرهن[١] .

---

(١) انظر النبلاء والإجابة وتعليقاتها .

وكانت رضي الله عنها ترى وجوب المحافظة على ألفاظ الحديث، ولاتجيز روايته بالمعنى، وربما أرسلت بعض تلاميذها إلى أحد حفاظ الصحابة يسأله عن حديث، ثم تأمره أن يسأله عن الحديث نفسه بعد مدة طويلة لتتأكد من ضبطه لألفاظ الحديث وصحة روايته له، من ذلك قولها لعروة: يابن أختي بلغني أن عبد الله بن عمرو مارٌّ بنا إلى الحج فالقه فسائلْه، فإنه قد حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً، قال عروة: فلقيته فساءلته عن أشياء يذكرها عن رسول الله ﷺ، فكان فيما ذكر أن النبي ﷺ قال: «إن الله لاينتزع العلم من الناس انتزاعاً، ولكن يقبض العلماء فيرفعُ العلمَ معهم، ويُبقي في الناس رؤوساً جُهَّالاً يفتونهم بغير علم، فيَضلّون ويُضلُّون» قال عروة: فلما حدثتُ عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته، قالت: أحدَّثك أنه سمع النبي ﷺ يقول هذا؟ قال عروة: حتى إذا كان قابلٌ، قالت له: إن ابن عمرو قد قدم فالقه ثم فاتحْه حتى تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم، قال: فلقيته فساءلته فذكره لي نحو ماحدثني به في مرَّتهِ الأولى، قال عروة: فلما أخبرتها بذلك قالت: ما أحسبه إلا قد صدق، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص[1]:

---

(١) رواه مسلم، قال النووي: ليس معناه أنها اتهمته لكنها خافت أن يكون اشتبه عليه. انظر شرح مسلم.

وعرف حفاظ السنة من الصحابة حرص السيدة على ضبط ألفاظ الحديث ؛ لذلك كان بعضهم يأتي إليها ويسمعها بعض الأحاديث ليؤكد لها قوة ضبطه وحفظه ، فقد كان أبو هريرة - وهو أكثر الصحابة حفظاً للسنة - يأتي إلى مكان قريب من حجرة السيدة فيحدث ويقول : اسمعي ياربة الحجرة اسمعي يا ربة الحجرة[1]. ومراده كما قال النووي ، تقوية الحديث بإقرارها ذلك وسكوتها عليه[2] .

كما كانوا إذا اختلفوا في شيء كلّموا السيدة فيه ، ففي الصحيحين : قيل لابن عمر : إن أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من تبع جنازة فله قيراط من الأجر » فقال ابن عمر : أكثر علينا أبو هريرة ، فبعث إلى عائشة فسألها فصدّقتْ أبا هريرة ، فقال ابن عمر : لقد فرّطْنا في قراريط كثيرة[3] . ولما اختلف زيد بن ثابت وابن عباس في صَدَر الحائض - أي في خروجها من مكة من غير أن تطوف طواف الوداع إذا كانت طافت طواف الإفاضة قبل أن تحيض - فقال ابن عباس : تنفر - أي تخرج - وقال زيد لاتنفر ، فدخل زيد على عائشة فسألها فقالت : تنفر ، فخرج زيد وهو

---

(١) رواه مسلم .

(٢) شرح مسلم .

(٣) الإجابة .

يقول : ما الكلام إلا ماقلت"[1] . وفي رواية : وذكرت له أن صفية حاضت ليلة النفر ـ الخروج من مكة ـ فقال النبي ﷺ : « أطافت يوم النحر ؟ » قيل : نعم ، قال : « فانفري » .

كل ذلك يؤكد لنا أنها رضي الله عنها كانت مرجع الصحابة في الحديث . وقد مر معنا قول أبي موسى الأشعري : ما أشكل علينا ، أصحاب رسول الله ﷺ ، حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علماً .

السيدة الفقيهة :

تعد السيدة عائشة رضي الله عنها من كبار علماء الصحابة المجتهدين ، وقد مر معنا أن الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ ومشيختهم كانوا يسألونها ، فتجيبهم ويستفتونها فتفتيهم ، حتى ذكر القاسم بن محمد أن عائشة قد استقلّت بالفتوى في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان إلى أن توفيت رحمها الله[2] .

ولم تكتف رضي الله عنها بما عرفت من أحوال النبي ﷺ وسمعت منه ؛ بل اجتهدت في استنباط الأحكام للوقائع الجديدة التي لم تجد لها حكماً صريحاً في الكتاب والسنة ، قال أبو سلمة ابن عبد الرحمن : ما رأيت أحداً أعلم بسنن رسول الله ﷺ

---

(١) الإجابة .

(٢) الطبقات ٢/٣٧٥.

ولا أفقه في رأي إن احتيج إليه ، ولا أعلم بآية فيما نزلت ، ولا فريضة من عائشة [1] .

ومن المعلوم أن الصحابة رضي الله عنهم اقتصروا في اجتهاداتهم على الحوادث التي عرضت لهم ، والتي لم يجدوا لها حكماً صريحاً في الكتاب والسنة ، وكرهوا التوسع في المسائل قبل وقوعها ، والسيدة عائشة كانت كذلك ، فإذا سئلت عن حكم قضية من القضايا بحثت في الكتاب والسنة فإن لم تجد اجتهدت رضي الله عنها في استنباط الحكم من الكتاب والسنة .

انظر كيف استنبطت منع التبتل والانقطاع عن الزواج إلى العبادة لما دخل عليها سعد بن هشام فقال : إني أريد أن أسألك عن التبتل فما ترين فيه ؟ قالت : فلا تفعل ، أما سمعت الله عزوجل يقول : [ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية] فلا تتبتل [2] .

وتأمل كيف استدلت على تحريم المتعة [3] ، قال ابن أبي مليكة : كانت عائشة إذا سئلت عن المتعة قالت : بيني وبينهم كتاب الله ،

---

(١) الطبقات : ٢/٣٧٥.

(٢) رواه النسائي ، والآية هي ٣٨ من سورة الرعد .

(٣) هي أن ينكح الرجل المرأة بشيء من المال معين مدة معينة ينتهي النكاح بانتهائها من غير طلاق . انظر كتاب « نكاح المتعة حرام في الاسلام » لسيدي محمد الحامد رحمه الله .

قال الله : [والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون] [1] .

ومن استنباطاتها الفقهية أيضاً أن امرأة قالت لها : يا أم المؤمنين كانت لي جارية فبعتها من زيد بن أرقم بثمانمائة إلى العطاء ، ثم ابتعتها منه بستمائة ، فنقدته الستمائة وكتبت عليه ثمانمائة ، فقالت عائشة : بئس ما اشتريت وبئس ما اشترى زيد بن أرقم ، إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب ، فقالت المرأة لعائشة : أرأيت إن أخذت رأس مالي ورددت عليه الفضل ؟ فقالت : [فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف] [2] .

وانفردت السيدة ببعض الآراء الفقهية ، خالفت فيها جمهور الصحابة ومن أتى بعدهم ، أذكر فيما يلي أهمها :

١ ـ من المعلوم أن التنفل بعد صلاة العصر مكروه ، وخالفت السيدة في هذا ، فكانت ترى جواز التنفل بركعتين بعد صلاة العصر وتقول : لم يدع رسول الله ﷺ الركعتين بعد العصر [3] . ولعلها

---

(١) المطالب العالية ، قال البوصيري : رجاله ثقات ، وأخرجه الحاكم والبيهقي . والآيات هي ٥ - ٧ من « سورة المؤمنون » .

(٢) الإجابة ، والآية هي ٢٧٥ من سورة البقرة ، وقد رجع زيد عن بيعه وتاب كما في رواية أحمد .

(٣) رواه مسلم .

رضي الله عنها رجعت بعد ذلك عن رأيها ، يدل على ذلك ما رواه مسلمٌ أن بعض الصحابة أرسلوا سائلاً يسألها عن الركعتين بعد العصر ، فقالت : سل أم سلمة ، وذهب بعض الفقهاء إلى أن التنفل بعد العصر من خصوصياته ﷺ [١] .

٢ - وفي قيام رمضان كانت ترى أن عدد الركعات فيه مع الوتر إحدى عشرة ركعة ، فلما سألها أبو سلمة بن عبد الرحمن : كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان ؟ قالت : ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً . فقلتُ يارسول الله : أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : « ياعائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي » [٢] .

لكن الصحابة رضي الله عنهم صلّوها عشرين ركعة ، وجمع عمر الناس على إمام واحد ، وكان كبار الصحابة إذ ذاك متوافرين فلم ينكروا عليه ، وحديث عائشة لا يصلح الاستدلال به على منع الزيادة ، لأن فعل النبي ﷺ لهذا العدد لا يدل على نفي ما عداه [٣] .

---

(١) الحلبي الكبير .

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم .

(٣) انظر تفصيل هذا البحث في كتاب « دراسات تطبيقية في الحديث النبوي » للدكتور نور الدين العتر .

٣ ـ ومر معنا أنهـا كانت ترى جواز صيام أيام التشريق ، وأنها كانت تصومها ، ومخالفتها في ذلك للجمهور [١] .

٤ ـ وكانت عائشة رضي الله عنهـا ترى أن حرمة المصاهرة في الإرضاع تثبت مهما كان سن الرضيع ؛ بينما يرى الجمهور أنها لا تثبت إلا إذا كانت في السنتين الأوليين من حياة الرضيـع ، إلا أبا حنيفة فقال : في سنتين ونصف . واحتج الجمهور بقوله تعالى : [والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين] وبما روته السيدة عائشة نفسها عن النبي ﷺ أنه قال : « إنما الرضاعة من المجاعة » ، أما السيدة فقد استدلت بأن سالماً ـ مولى أبي حذيفة ـ كان مع أبي حذيفة وأهله في بيتهم ، فأتت زوجة أبي حذيفة النبي ﷺ فقالت : إن سالماً قد بلغ ما يبلغ الرجال ، وعقل ما عقلوا ، وإنه يدخل علينا ، وإني أظن أن في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال لها النبي ﷺ : « أرضعيه تحرمي عليه ، ويذهب الذي في نفس أبي حذيفة » فرجعت فقالت : إني أرضعته فذهب الذي في نفس أبي حذيفة [٢] . وحَمَل الجمهور حديث السيدة عائشة على أنه مختص بزوجة أبي حذيفة ، وقد روى مسلم عن أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ أنهن خالفن عائشة في هذا [٣] .

---

(١) انظر بحث : « عبادتها ».

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم .

(٣) مسند السيدة عائشة .

وهكذا جمعت السيدة عائشة بين علم الرواية وعلم الدراية، حتى قال عطاء: كانت عائشة أفقه الناس وأحسن الناس رأياً في العامة. وذكر أبو عمر بن عبد البر رحمه الله أنها كانت وحيدة عصرها في ثلاثة علوم: علم الفقه، وعلم الطب، وعلم الشعر [١].

من فقه السيدة [٢]:

- ترى طهارة سؤر الهرة ١/١٠٢.
- تستحب الوضوء من الكلام الخبيث ١/١٢٧.
- لا ترى انتقاض الوضوء بلمس المرأة أو تقبيلها ١/١٣٥.
- ترى وجوب الغسل على الرجل والمرأة بالتقاء الختانين ولو لم يحدث إنزال ١/٢٤٥.
- المرأة الحامل لاتحيض، وإذا رأت الدم تغتسل وتصلي ١/٣١٧، ولعل مرادها غسل الدم لا الغسل.
- إذا استيقظ النائم فوجد بللاً ولم يذكر احتلاماً فعليه الغسل ١/٢٥٤.
- تنهى النساء عن دخول الحمامات العامة إلا من سقم ١/٢١٦.

---

(١) الإجابة.

(٢) استخرجت هذه الآراء الفقهية للسيدة من كتاب «المصنف» للإمام عبد الرزاق الصنعاني. وقد أشرت في آخر كل رأي إلى مكانه في الكتاب المذكور.

- تعد الصُّفرة من الحيض ٣٠٢/١ .
- المستحاضة تجلس أيام أقرائها ـ حيضها ـ ثم تغتسل غسلاً واحداً ، وتتوضأ لكل صلاة ٣٠٤/١ .
- لا يضر أثر دم الحيض على الثوب بعد فركه وغسله ٣١٩/١ .
- للزوج أن يستمتع بزوجته الحائض إذا كانت مؤتزرة ٣٢٣/١ .
- يجوز للمضطجع قراءة القرآن ٣٤٠/١ .
- الثوب الذي يعرق فيه الجنب طاهر ٣٦٦/١ .
- تكره النوم قبل صلاة العشاء والسمر بعدها ٥٦٢/١ .
- يفتتح المصلي الفاتحة بـ الحمد لله رب العالمين ٨٩/٢ .
- تنهى عن وضع المصلي يده على خاصرته ٢٧٣/٢ .
- يجوز للعبد أن يصلي إماماً ، وكانت تأتم بعبدها ذكوان ٣٩٤/٢ .
- تقرأ في المصحف وهي تصلي ٤٢٠/٢ .
- تدعو في صلاة التطوع أثناء قراءة القرآن ٤٥١/٢ .
- لا ترى بأساً في إتمام الصلاة في السفر وكانت تتم في السفر ٥٦١/٣ .
- كما كانت تصوم في السفر ٥٧٠/٢ .
- تستحب تخفيف ركعتي سنة الفجر ٦٠/٣ .

- تصلي الضحى وتقول : إن رسول الله ﷺ كان يترك العمل خشية أن يستن به الناس فيفرض عليهم ، وكان يحب ما خف على الناس ٧٨/٣ .
- تقتدي بإمام المسجد وهي في حجرتها ٨٢/٣ .
وكانت حجرتها ملاصقة للمسجد وبابها إليه .
- تؤذن المرأة وتقيم لنفسها إذا أرادت أن تصلي ١٢٦/٣ .
- لا تصح صلاة المرأة البالغة بدون خمار ، وتقول فيه : إنما الخمار ماوارى الشعر والبشر ١٣٣/٣ .
- لا ترى وجوب الغسل يوم الجمعة ٢٠٠/٣ .
- لا ترى وجوب سجدة التلاوة ، وتقول : حق لله تؤدونه أو تطوع تطوعونه ، فما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة أو حط عنه بها خطيئة أو جمعهما له كليهما ٣٤٧/٣ .
- تكره نقل الميت ليدفن في غير مكان وفاته ٥١٧/٣ .
- ترى جواز الصلاة على الجنازة في المسجد ٥٢٦/٣ .
- تزكي أموال اليتامى وتتاجر فيها ٦٦/٤ .
- لاترى وجوب الزكاة في حلي المرأة ٨٣/٤ .
- وتقول في الدّين : ليس فيه زكاة ١٠٣/٤ . ولعله في حال عجز صاحبه عن تحصيله .
- لايفطر الصائم إذا قبّل زوجته ١٨٣/٤ . بشرط ألا يدخل إلى جوفه شيء من ريقها .

- يجوز للصائم أن يستمتع بزوجته إلا الجماع ٤/١٩٠، وهذا إذا أمن على نفسه الإنزال أو الجماع ، أما إذا كان لا يأمن فيكره له ذلك لأنه يفضي إلى فساد صومه .
- تقول في صيام يوم العاشر من المحرم : من شاء صامه ومن شاء تركه ٤/٢٨٩ .
- المعتكف لايعود المريض ٤/٣٥٨ .
- ترى أن الصدقة على الفقراء أفضل من الهدي إلى المسجد الحرام ٥/٢٣ .
- لا تكشف عن وجهها أثناء الإحرام وتطوف وهي منتقبة ٥/٢٥ .
- تقرن في الطواف ، وتصلي بعد ذلك لكل سبعة أشواط ركعتين ٥/٦٥ .
- لاتخالط الرجال في الطواف ٥/٦٧ .
- الرجال هم الذين يباشرون عقد الزواج ٦/٢٠١ .
- تفسر الأقراء بالأطهار ٦/٣١٩ .
- لاترى وقوع الطلاق في انقضاء أربعة أشهر على المرأة التي آلى منها زوجها ٦/٤٥٧ .
- تخيير الزوج زوجته لايعد طلاقاً ٧/١١ .
- للمطلقة النفقة والسكنى ، وتنكر على فاطمة بنت قيس حديثها أنه لانفقة لها ولاسكنى ٧/٢٠ .

- تنهى المطلقة أن تخرج من بيتها حتى تنقضي عدتها ٢٦/٧ .
- تفتي المتوفى عنها زوجها بالخروج في عدتها ٢٩/٧ ، ولعل ذلك في حال الضرورة .
- تكره البيع مع الشرط ٥٦/٨ .
- تمنع البائع أن يشتري السلعة المبيعة من المشتري قبل قبض الثمن بأقل من الثمن ١٨٤/٨ .

معرفتها بالطب والأنساب :

هذه الشهادة التي صدرت عن عالم جليل كابن عبد البر ، تبين لنا أن عائشة رضي الله عنها لم تقتصر على علوم الدين فقط ؛ إنما كانت على اطلاع واسع على علوم أخرى كعلم الطب والأنساب والشعر ، حتى كان عروة بن الزبير يتملكه العجب من إحاطة السيدة بكل هذه العلوم ، فيقول لها متعجباً : **إني لأتفكر في أمرك فأعجب ، أجدك من أفقه الناس ، فقلت : مايمنعها ؟ زوجة رسول الله ﷺ وابنـــة أبي بكر ، وأجدك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها ، فقلت : وما يمنعها وأبوها علاّمة قريش ؟ ولكن إنما أعجب أن وجدتك عالمةً بالطب فمن أين ؟** ! فتجيبه السيدة رضي الله عنها جواب المعلمة الواثقة من نفسها وعلمها بعد أن تأخذ بيده وتقول : يا عُرَيَّةُ ـ تصغير عروة ـ **إن رسول الله ﷺ كثر من أسقامه ، فكان أطباء**

العرب والعجم ينعتون له فتعلمت ذلك[١] . وذكر الذهبي جوابها بلفظ : أي عُرَيَّةُ إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره - أو في آخر عمره - وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها له ، فمن ثَمَّ[٢] .
وفي رواية ثانية قالت : **كنت أمرض فيُنعت لي الشيء ويمرض المريض فيُنعت له ، وأسمع الناس ينعتُ بعضهم لبعض فأحفظه**[٣] .

وهذا يدل على أن السيدة لم تعتمد في تعلمها الطب على تعليم طبيب أو تدريب مدرب ، إنما اعتمدت على ذكائها وقوة ملاحظتها ، وقلّ من الناس من يسألها عن هذ العلم ، وإنما كان الناس يسألونها عن علوم الدين ، لأنهم ما كانوا يتصورون حِذق السيدة لهذا العلم ، لذلك كان عروة يتأسف بحرقة وألم بعد موتها على ذهاب هذا العلم الجم الغزير بوفاتها دون أن يتلقاه أحد عنها ، فيقول : فلقد ذهب عامة علمها لا يسأل عنه[٤] .

ومما يدل على غزارة علم السيدة بالأنساب قولها : استقام نسب الناس إلى معدّ بن عدنان[٥] .

---

(١) الإجابة .
(٢) النبلاء .
(٣) النبلاء .
(٤) النبلاء .
(٥) الطبراني في الأوسط وفيه ابن اسحاق مدلس كما في المجمع .

أشهر تلاميذها :

تخرج من مدرسة السيدة عائشة رضي الله عنها سادة علماء التابعين ، وقد مر معنا في استعراضنا لأسماء من تشرف بالتلقي عنها كثرة من العلماء من مشاهير التابعين ، الذين دخلوا الحجرة الشريفة وجلسوا أمام الحجاب ، يستمعون إلى المعلمة الكبرى وهي تلقي عليهم من وراء الحجاب درر السنة النبوية و كنوزها .

وبعض هؤلاء العلماء كان من محارم السيدة وأقربائها ، ضمتهم السيدة إليها وربتهم في حجرها وعلمتهم ، فصنع الله منهم على يد السيدة حَفَظَةَ الاسلام ونَقَلَتَه إلى الأجيال اللاحقة بعد جيل الصحابة والتابعين ، وقد كان هؤلاء أقرب إلى السيدة من غيرهم وأكثر مخالطة لها ، يدخلون عليها الحجاب ويجلسون مباشرة بين يديها ، وربما كانوا أكثر جرأة في سؤال السيدة عن كل ما أشكل عليهم من غيرهم .

وهم : عبد الله وعروة ابنا الزبير من أختها أسماء رضي الله عنهم ، والقاسم بن محمد وهو ابن أخي السيدة ، وعبد الله ابن أبي عتيق حفيد أخي السيدة ، وعبّاد وخبيب ولدا عبد الله ابن الزبير ، وعباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير ، وأبو سلمة ابن عبد الرحمن ابن أختها من الرضاعة .

وأكتفي بتعريف القارىء بعروة والقاسم لأنهما كانا أقرب الناس إليها وأكثرهم تلقياً عنها .

عروة بن الزبير :

عروة بن الزبير بن العوام الإمام عالم المدينة ، أبو عبد الله القرشي الأسدي المدني[1] ، وأمـــه أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

ولد في آخر خلافة عمر سنة ٢٣ هـ ، وكان يوم الجمل ابن ثلاث عشرة سنة فاستصغر[2] ، وقيـــل ولد سنة ٢٩ لستّ سنين خلت من خلافة عثمان ، وفيه نظر ، وقد ناقش ابن حجر هذا القول وبين خطأه ورجح الأول[3] .

تفقّه بالسيدة عائشة رضي الله عنها ، وكان يدخل عليهـــا كثيراً ، قال قبيصة بن ذؤيب : كان عروة يغلبنا بدخوله على عائشة — وكانت عائشة أعلم الناس[4] — ، وكان عروة أعلم الناس بحديث عائشة ، ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل المدينة وقال : كان ثقة كثير الحديث فقيهاً عالماً ثبتاً ماموناً[5] .

وأخرج ابن سعد عن ابن شهاب الزهري قال : كنت إذا

---

(١) تذكرة الحفاظ .

(٢) تهذيب التهذيب .

(٣) انظر تهذيب التهذيب .

(٤) المرجع نفسه .

(٥) المرجع نفسه ،

حدّثني عروة ثم حدثتني عمرةُ يصدق عندي حديث عروة ، فلما تبحّرتها إذا عروة بحر لاينزف[1] .

روى عروة عن : أبيه وأخيه عبد الله وأمه أسماء وخالته عائشة وعلي بن أبي طالب وسعيد بن زيد وحكيم بن حزام وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن عمرو بن العاص وأسامة بن زيد وأبي أيوب وأبي هريرة وغيرهم[2] .

وروى عنه أولاده عبد الله وعثمان وهشام ومحمد ويحيى ، وابن ابنه عمر بن عبد الله ، وابن أخيه محمد بن جعفر بن الزبير ، وأبو الأسود محمد بن عبد الرحمن يتيم عروة وسليمان بن يسار وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وأبو بردة والزهري وابن أبي مليكة وعمر بن عبد العزيز وآخرون[3] .

كان شديد الحرص على نشر السنة النبوية الشريفة حتى بلغ به الحرص أنه كان يتألف طلاب العلم بالمال ليتلقوا الحديث عنه ، قال الذهبي : كان يتألف الناس على حديثه[4] ويحث أولاده على التعلم فيقول : يا بنيّ تعلموا العلم ، فإنكم إن تكونوا صغار

(١) الطبقات ١٨١/٥ .
(٢) انظر التهذيب .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) التذكرة .

قوم عسى أن تكونوا كبارهم ، واسوأتاه ماذا أقبح من شيخ جاهل ! ! ويقول أيضاً : يا بنيّ سلوني فلقد تُرِكْتُ حتى كدتُ أنسى ، وإني لأسألُ عن الحديث فيفتح لي حديث يومي[1]. ويرى أن على طالب العلم أن يطلب العلم وأن يذل نفسه في طلبه حتى يورثه ذلك عزاً طويلاً ، فيقول : ربّ كلمة ذل احتملتها أورثتني عزاً طويلاً[2] .

حمل عروة علم عائشة رضي الله عنها حتى كان يقول : لقد رأيتني قبل موت عائشة بأربع حجج أو خمس حجج وأنا أقول : لو ماتت اليوم ماندمت على حديث عندها إلا وقد وعيته[3] .

كما حمل عنها رضي الله عنها كثيراً من شمائلها ، فقد تأثر بجودها وسخائها فكان كريماً جواداً سخياً ، إذا كان أيام الرطب يثلم حائطه فيجعل في جداره فجوة ، ثم يأذن للناس فيه فيدخلون ويأكلون ويحملون ، وكان ينزل حوله ناس من أهل البدو فيدخلون ويأكلون ويحملون ، وكان إذا دخل بستانه رَدّدَ هذه الآية : [ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله][4] .

---

(١) صفة الصفوة .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) تهذيب التهذيب .

(٤) حلية الأولياء .

وكذلك تأثر بعبادة السيدة فكان كثير العبادة يقرأ كل يوم ربع القرآن في المصحف ويقوم به ليله ، وماتركه إلا ليلة قطعت رجله ، ثم عاود حزبه من الليلة المقبلة ، حدث ذلك لما قدم عروة على الوليد بن عبد الملك ومعه ابنه محمد بن عروة ، فدخل محمد دار الدواب فضربته دابة فخرّ وحُمل ميتاً ، ووقعت في رجل عروة الأكلة ، ولم يدع تلك الليلة ورده ، فقال له الوليد اقطعها ، قال : لا ، فترقَّتْ إلى ساقه ، فقال له الوليد : اقطعها وإلا أفسدت عليك جسدك ، فقطعت بالمنشار ، وهو شيخ كبير ، فلم يمسكه أحد ، وقال : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، وقال أيضاً : **اللهم إنه كان لي أطراف أربعة ، فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلك الحمد ، وكان لي بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت لي ثلاثة ، فلك الحمد ، وايم الله لئن أخذت لقد أبقيت ، ولئن أبليت طالما عافيت**[1] .

وكان رحمه الله يوصي أهله بالصلاة ويقول : إذا رأى أحدكم شيئاً من زينة الدنيا وزهرتها فليأت أهله وليأمرهم بالصلاة وليصطبر عليها ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : [لا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا[2]] وكان يصوم الدهر ومات صائماً[3] .

---

(١) الحلية .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) تذكرة الحفاظ .

اتخذ عروة لنفسه بيتاً خارج المدينة في العقيق وسكن فيه ، وسبب ذلك يحكيه عبد الله بن حسن فيقول : كان علي بن حسين بن علي بن أبي طالب يجلس كل ليلة هو وعروة بن الزبير في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ بعد العشاء الآخرة ، فكنت أجلس معهما ، فتحدثنا ليلةً ، فذُكر جَوْرُ من جار من بني أمية ، والمقام معهم وهم لايستطيعون تغيير ذلك ؛ ثم ذكرا ما يخافان من عقوبة الله لهم ، فقال عروة لعلي : ياعلي إن من اعتزل أهل الجور - والله يعلم سُخطه لأعمالهم - فإن كان منهم على ميل ، ثم أصابتهم عقوبة الله ، رُجي له أن يسلم مما أصابهم ، قال فخرج عروة فسكن العقيق[1] .

شُغف رحمه الله بالعلم منذ صغره ، وتمنى أن يُحمل عنه العلم ، فحقق الله له أمنيته ، اجتمع يوماً في الحجر مصعب بن الزبير وعروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، فقالوا : تمنوا ، فقال عبد الله بن الزبير : أما أنا فأتمنى الخلافة ، وقال عروة : أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم ، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أما أنا فأتمنى المغفرة ، فنالوا كلهم ما تمنوا ، ولعل ابن عمر قد غفر له[2] .

---

(١) الطبقات .

(٢) الحلية .

توفي رحمه الله سنة أربع وتسعين ودفن يوم الجمعة ، وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها[١] .

ومن أقواله رحمه الله : إذا رأيت الرجل يعمل بالحسنة فاعلم أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيته يعمل السيئة فاعلم أن لها عنده أخوات ، فإن الحسنة تدل على أختها ، وإن السيئة تدل على أختها .

ويقول أيضاً : إذا جعل أحدكم لله عز وجل شيئاً ، فلا يجعل له ما يستحيي أن يجعله لكريمه ، فإن الله تعالى أكرم الكرماء وأحق من اختير له[٢] .

ولما نُشرت ساقه قال : اللهم إنك تعلم أني لم أمش بها إلى حرام قط أو إلى سوء قط[٣] .

ومن أقواله أيضاً : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم وأمهاتهم .

ويقول أيضاً : إني لأعشق الشرف كما أعشق الجمال .

ويقول أيضاً : مكتوب في الحكمة : لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً ، تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء[٤] .

---

(١) الطبقات .
(٢) صفة الصفوة .
(٣) المرجع نفسه .
(٤) الحلية .

القاسم بن محمد :

الإمام القدوة أبو عبد الرحمن التيمي المدني الفقيه ، قتل أبوه – كما مر معنا – تربى يتيماً في حجر عمته – عائشة – فتفقه بها[١] . قال ابن سعد : كان رفيعاً عالياً فقيهاً كثير الحديث ورعاً[٢] ، اهتمت به السيدة بعد مقتل أبيه كثيراً ، وكان رحمه الله يذكر بعض عناية السيدة به وبإخوته فيقول : كانت عائشة تحلق رؤوسنا عشية عرفة ، ثم تحلّقنا وتبعثنا إلى المسجد ، ثم تضحي عندنا من الغد[٣] .

ورث رحمه الله عن السيدة عائشة رضي الله عنها رواية السنة حتى قالوا : أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة : القاسم ، وعروة ، وعمرة[٤] .

وروى أيضاً عن : ابن عباس ومعاوية وفاطمة بنت قيس وابن عمر وغيرهم ، وروى عنه : ابنه عبد الرحمن والزهري وابن المنكدر وابن عون وربيعة الرأي ، وأفلح بن حميد ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وأيوب السختياني ، وخلق[٥] .

---

(١) التذكرة .
(٢) الطبقات .
(٣) الطبقات .
(٤) التهذيب .
(٥) التذكرة .

جمع رحمه الله بين الفقه ورواية السنة ، قال ابو الزناد : ما رأيت فقيهاً أعلم من القاسم ، وما رأيت أحـــداً أعلم بالسنة منه . وروى ابن وهب عن الإمام مالك أنه قال : كان القاسم من فقهاء هذه الأمة . وقال ابن عيينة : كان القاسم أعلم أهل زمانه . وكان ابن سيرين يأمر من يحج أن ينظر إلى هدي القاسم فيقتدي به[1] .

وقد مر معنا أن السيدة عائشة كانت تحرص على رواية الحديث بألفاظه ، وقد تأثر القاسم بذلك فكان يحدث الحديث على حروفه ، قال البخاري في ولده عبد الرحمن : كان أفضل أهل زمانه ، وسمع أباه ، وكان أفضل أهل زمانه . وقال يحيى بن سعيد : ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم[2] . كان له رحمه الله في مسجد رسول الله ﷺ مجلس علمي خاص يأتيه أول النهار فيصلي ركعتين ثم يجلس بين الناس فيسألونه ، وكان مجلسه تجاه خوخة عمر بين القبر والمنبر ، وجلس فيه بعده ابنه عبد الرحمن وعبيد الله بن عمر ، ثم جلس فيه بعدهما مالك بن أنس[3] .

كان رحمه الله عفيفاً كريماً ورعاً ، أرسل إليه عمر بن عبيد

---

(١) انظر التذكرة والتهذيب .

(٢) التهذيب .

(٣) الطبقات .

الله بألف دينار فأبى أن يقبلها ، وترك مائة ألف أتته ما تخلَّج ـ تحرك ـ في فمه منها شيء ، سمع ولده عبد الرحمن أناساً يكلمون أباه في شيء من صدقة كان وليها فقال : والله إنكم لتكلمون رجلاً ما نال منها تمرة قط[1] . استهل أبو نعيم الحديث عنه بقوله : ومنهم الفقيه الورع الشفيق ، الضَّرِع نجل الصديق ، ذو الحسب العتيق ... كان لغوامض الأحكام فائقاً ، وإلى محاسن الأخلاق سابقاً[2] .

ومن ورعه رحمه الله أنه لايجيب عن كل مايسأل عنه ويقول : ما نعلم كل مانسأل عنه ، ولئن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله تعالى عليه خير له من أن يقول مالا يعلم . قال أيوب : سمعت القاسم يُسأل بمنى فيقول : لا أدري ، لا أعلم ، فلما أكثروا عليه قال : والله ما نعلم كل ما تسألون عنه ، ولو علمنا ما كتمناكم ، ولاحل لنا أن نكتمكم[3] .قال محمد بن إسحاق : جاء أعرابي إلى القاسم بن محمد ، فقال : أنت أعلم أو سالم ؟ فقال : ذاك منزل سالم ، فلم يزده عليها حتى قام الأعرابي ، كره أن يقول هو أعلم مني فيكذب ، أو يقول : أنا أعلم منه فيزكي نفسه[4] .

---

(١) الطبقات .

(٢) الحلية .

(٣) الحلية .

(٤) المرجع نفسه .

تأثر عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالقاسم بن محمد كثيراً ، ويبدو أن التغير الذي حدث في سلوك ومعيشة عمر بن عبد العزيز بعد توليه الخلافة مرده إلى تأثره بالقاسم بن محمد رحمه الله ، حتى قالوا لما ولي عمر بن العزيز الخلافة : اليوم تنطق العذراء ، أرادوا القاسم[١] . وكان عمر بن عبد العزيز يتمنى أن يوصي بالخلافة من بعده للقاسم ، لأنه يراه أهلاً لها ويقول : لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفت أُعَيْمش بني تيم ، يعني القاسم ، قال الذهبي : وصدق ، فإن الخلافة من بعده كانت معهودة إلى يزيد بن عبد الملك[٢] . ويدل على شدة تأثر عمر بن عبد العزيز بالقاسم بن محمد رحمهما الله تعالى أن عبد الملك بن مروان لما توفي أسف عليه عمر بن عبد العزيز أسفاً منعه من العيش ، وقد كان ناعماً — أي في معيشته — فاستشعر المُسَحَ سبعين ليلة[٣]، فقال له القاسم بن محمد : أعلمت أن من مضى من سلفنا كانوا يحبون استقبال المصائب بالتجمل ، ومواجهة النعم بالتذلل ، فراح عمر من عشية يومه من حبرات أهل اليمن ، شراؤها ثمانمائة درهم ، وفارق ما كان يصنع[٤] .

---

(١) التهذيب .

(٢) التذكرة .

(٣) أي لبس مسوح الشعر على جسده مباشرة سبعين ليلة .

(٤) الحلية .

مات القاسم رحمه الله بقُديد ، بين مكة والمدينة حاجاً أو معتمراً ، فقال لابنه : سُنّ عليّ التراب سَنّاً ، وسوِّ عليّ قبري والحقْ بأهلك ، وإياك أن تقول كان وكان[1] ، وأوصى رحمه الله ولده قائلاً : كفنوني في ثيابي التي كنت أصلي فيها ، قميصي وإزاري وردائي ، فقال له ابنه : يا أبت ألا تريد ثوبين ؟ فقال : يابني هكذا كُفّن أبو بكر في ثلاثة أثواب ، والحي أحوج إلى الجديد من الميت[2] . ودفن رحمه الله بالمشلّل على نحو ثلاثة أميال من قديد ، ووضع ابنه السرير على كاهله ومشى حتى بلغ المشلّل .

ومات سنة ثمان ومائة وكان ذهب بصره وهو ابن سبعين أو اثنتين وسبعين سنة . ونقل الذهبي عن خليفة بن خيّاط أنه مات في آخر سنة ست ومائة ، وبعضهم قال سنة سبع ومائة رحمه الله[3] .

ومن أقواله رحمه الله : إن هذه الذنوب لاحقة بأهلها .

وإذا سئل عن حكم مسألة قال : أُرى ولا أقول إنه الحق ، وقال لقوم يذكرون القدر : كفوا عما كف الله عنه .

وقال في اختلاف آراء الصحابة في الفروع الفقهية : كان اختلاف أصحاب رسول الله رحمة للناس[4] .

---

(١) صفة الصفوة .

(٢) الطبقات .

(٣) انظر الطبقات والتذكرة .

(٤) انظر الطبقات والحلية .

أشهر تلميذاتها :

لم تقتصر السيدة في مدرستها على تعليم الرجال ، إنما اهتمت أيضاً بتعليم النساء ، وقد تخرج من الحجرة الشريفة عالمات جليلات ، ساهمن في حفظ السنة وروايتها ونقلها إلى الأجيال اللاحقة ، وقد ذكرتُ سابقاً أسماء بعض الراويات للسنة عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، وأكتفي هنا بتعريف القارىء باثنتين منهن هما : عَمْرَةُ ومُعاذَةُ رحمهما الله تعالى .

عَمْرَةُ بنت عبد الرحمن :

هي عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرَارة الأنصارية المدنية النجّارية . اختلف العلماء في جدها ، ذهب بعضهم إلى أن اسمه سعد بن زُرَارة ، قيل : هو أخو أسعد بن زرارة ، ونقل ابن الأثير عن أبي عمر قوله : أخشى أن لايكون أدرك الاسلام . وذُكر عن أبي نعيم سنداً لحديث يدل على أن جدها هو أسعد بن زرارة الصحابي المشهور ، الذي كان أحد النقباء في العقبة ، والذي توفي في العام الأول من الهجرة بعد أن مرض وكواه النبي ﷺ[1] . واختلفوا أيضاً تبعاً لذلك في نسب أبيها ، بعضهم قال : عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، وبعضهم

---

(١) انظر أسد الغابة .

قال : عبد الرحمن بن سعد ، وقد أدرك النبي ﷺ[1] وجزم ابن سعد أنها بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة بن عدس بن عبيد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النجار[2] . فهي إذن من بني النجار أخوال النبي ﷺ . ولم يذكر المؤرخون تاريخ وفاة والدها، ويبدو أنه توفي بعد النبي ﷺ لأن السيدة عائشة قد ضمّت عمرة وأخواتها إلى حجرها ، ونشأت عمرة في حجر عائشة رضي الله عنها ، ومن المعلوم أن عائشة لم تضم إلى حجرها أحداً في حياة رسول الله ﷺ ، ولعل السيدة رضي الله عنها ضمتها وأخواتها إلى حجرها لأنهم من بني النجار أخوال النبي ﷺ ، أخرج ابن سعد عن عمرة قالت : كانت هي وأخواتها في حجر عائشة وعندها ، قالت : وكان لنا حليّ وكنا لا نزكيّه[3] . وأخرج مسلم في صحيحه حديثاً يدل سنده على ذلك فقال : حدثنا أحمد ابن عبد الرحمن بن وهب ... أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن وكانت في حجر عائشة[4] ...

والحديث يدل على أن عمرة قد تزوجت ، ويذكر ابن سعد زوجها فيقول : تزوجها عبد الرحمن بن حارثة بن النعمان فولدت

---

(١) أسد الغابة .

(٢) الطبقات .

(٣) المرجع نفسه .

(٤) انظر صحيح مسلم .

له محمد بن عبد الرحمن وهو أبو الرجال[1] . وهو لقب له وكان جده حارثة من أهل بدر ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وروى عن أمه عمرة وأنس بن مالك وسالم بن عبد الله ، قال البخاري : هو ثَبْت ، ووثقه أحمد بن حنبل وأبو حاتم الرازي[2] .

روت عمرة عن عائشة وأم سلمة ، وكانت عالمة[3] . وذكر ابن المديني عمرة بنت عبد الرحمن ففخَّم أمرها ، وقال : عمرة أحد الثقات العلماء بعائشة الأثبات فيها ، وقال ابن حبان : كانت من أعلم الناس بحديث عائشة . روى عنها : ابنها أبو الرجال وأخوها محمد بن عبد الرحمن الأنصاري وابن أخيها يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن وابن ابنها حارثة بن أبي الرجال وابن أختها أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وعروة بن الزبير وسليمان ابن يسار والزهري وآخرون[4] .

وهذا يدل على أن السيدة عائشة رضي الله عنها برعايتها لعمرة وإخوتها وأخواتها قد أنشأت أسرة من المحدثين والمحدثات كان لها فضل كبير على رواية السنة . وكان عمر بن عبد العزيز

---

(١) الطبقات .
(٢) التهذيب .
(٣) الطبقات .
(٤) التهذيب .

يسأل عمرة رحمهـا الله ، وكتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سنة ماضية ، أو حديث عمرة بنت عبد الرحمن فاكتبه ، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله . ويقول أيضاً : ما بقي أحد أعلم بحديث عائشة منهـا[1] . كما أن القاسم بن محمد – على جلالة قدره – كان يسأل عمرة[2] . ومما يدل على تمكنها من العلم وشهرتها به أن ابن سعد في الطبقات عدّها في من كان يفتي بالمدينة بعد الصحابة من أبناء المهاجرين والأنصار .

توفيت رحمها الله سنة ثمان وتسعين ، وقيل : ماتت سنة ست ومائة ، وهي بنت سبع وسبعين سنة[3] . وأخرج ابن سعد أنها قالت لبني أخٍ لها : أعطوني موضع قبري في حائط ، ولهم حائط ، – بستان – يلي البقيع ، فإني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول : كسر عظم الميت ككسره حياً[4] .

معاذة العدوية :

وهي معاذة بنت عبد الله العدوية أم الصهباء البصرية امرأة صِلَة

(١ و ٢) الطبقات .

(٣) التهذيب .

(٤) الطبقات .

ابن أُشْيَم[1] . وصلة بن أشيم من خيار التابعين ، كان ثقة له فضل وورع ، قتل شهيداً في بعض المعارك في كابل في أول إمرة الحجاج على العراق ، وكان معه ابنه فقال : أي بني تقدَّم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قُتل ، ثم تقدم صِلَة فقاتل ، فقُتل ، فاجتمعت النساء عند امرأته معاذة العدوية ، فقالت : **مرحباً بكن إن جئتن تهنئنني ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن**[2] .

ويبدو أن معاذة العدوية ورثت عن السيدة عائشة رضي الله عنها حبها لكثرة العبادة ، فقد اشتهرت معاذة بذلك ، ذكرها ابن حبان في الثقات ، وقال : كانت من العابدات ، يقال إنها لم تتوسد فراشاً بعد أبي الصهباء حتى ماتت[3] .

روت معاذة عن عائشة وعلي وهشام بن عامر وأم عمرو بنت عبد الله بن الزبير ، وروى عنها أبو قلابة ، وقتادة ، ويزيد الرِّشْك ، وعاصم الأحول ... وغيرهم[4] .

ومن أقوالها رحمها الله بعد استشهاد زوجها وولدها :

---

(١) التهذيب .

(٢) انظر الطبقات والحلية .

(٣) التهذيب .

(٤) المرجع نفسه .

والله ما محبتي للبقاء في الدنيا للذيذ عيشٍ ولا لروح نسيم ، ولكن والله أحب البقاء لأتقرب إلى ربي عز وجل بالوسائل ؛ لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولده في الجنة[1] . وكانت رحمها الله تحيي الليل صلاةً فإذا غلبها النوم قامت فجالت في الدار وهي تقول : **يانفسُ النوم أمامك ، لو قدمت لطالت رقدتك في القبر على حسرة أو سرور ، فهي كذلك حتى تصبح**[2]

قال ابن حجر : روينا في فوائد عبد العزيز المشرفي بسندٍ له عن أبي بشر ـ شيخ من أهل البصرة ـ قال : أتيت معاذة ، فقالت : إني اشتكيت بطني ، فوصف لي نبيذ الجر ، فأتيتها منه بقدح ، فوضعته ، فقالت : اللهم إن كنت تعلم أن عائشة حدثتني أن النبي ﷺ نهى عن نبيذ الجر فاكفنيه بما شئت ، قال : فانكفأ القدح وأهريق مافيه وأذهب الله تعالى ما كان فيها[3] . ولما حضرتها الوفاة بكت ثم ضحكت ، فقيل لها : مم بكيت ثم ضحكت ؟ قالت : **أما البكاء الذي رأيتم فإني ذكرت مفارقة الصيام والصلاة والذكر فكان البكاء ، وأما الذي رأيتم من تبسمي وضحكي ، فإني نظرت إلى أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حلتان خضراوان في نَفرٍ**

---

(١) صفة الصفوة .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) التهذيب .

والله ما رأيت لهم في الدنيا شَبَهاً ، فضحكت إليه ، ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضاً ، قال : فماتت قبل أن يدخل وقت صلاة [1] . قال ابن الجوزي : توفيت سنة ثلاث وثمانين [2] رحمها الله .

الأدب :

ما من أحد سمع السيدة عائشة رضي الله عنها أو قرأ كلامها إلا وبهرته فصاحتها ، وسحرته بلاغتها ، وأدهشته عارضتها ، وحسبنا في هذا ما قاله معاوية بن أبي سفيان بعد أن التقى بالسيدة عائشة وخرج يتكىء على عبدها ذكوان ويقول : والله **ما سمعت قط أبلغ من عائشة ، ليس رسول الله** ﷺ [3] . وما قاله الأحنف بن قيس فقد قال : سمعت خطبة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، والخلفاء هلمّ جراً إلى يومي هذا ، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة رضي الله عنها [4] . وأخرج الترمذي عن موسى بن طلحة أنه قال : ما رأيت أحداً

---

(١) صفة الصفوة .

(٢) هامش تهذيب التهذيب .

(٣) النبلاء .

(٤) الحاكم في المستدرك .

أفصح من عائشة[1] . وكان الشّعبي يذكرها فيتعجب من فقهها وعلمها ثم يقول : ما ظنكم بأدب النبوة[2] .

هذا الأدب الرفيـع الذي صدر عن السيدة ، لاشك أنه موهبة من الله سبحانه ، ولكن لابد ثمة من عوامل متعـددة ساعدت في تنمية هذه الموهبة الأدبية وصقلها . من هذه العوامل المحتد الطيب للسيدة ، فهي بنت الصديق أعلم رجالات قريش بأيام العرب وأنسابها وأخبارها ، فحملت السيدة من بيت والدها كثيراً من أخبار العرب وأنسابها ومفاخرها ، حتى كانت تروي القصيدة ستين بيتاً[3] . ومر معنا تنويه عروة بهذه الحقيقة عندما قال للسيدة : وأجدك عالمة بأيام العرب وأنسابها وأشعارها ، فقلت : وما يمنعها وأبوها علاّمة قريش[4] . ولنستمع إلى هذه المحاورة الطريفة بين أبي بكر وأحد وفود العرب لنعرف مدى تمكن الصديق من أنساب العرب وأخبارها .

قال ابن عباس : حدثني علي بن أبي طالب قال : لما أمر الله رسوله أن يعرض نفسه على القبائل ، خرج مرة وأنا معه وأبو

---

(١) الإجابة .

(٢) النبلاء .

(٣) النبلاء .

(٤) انظر ماسبق في بحث « معرفتها بالطب والأنساب » .

بكر حتى رفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم – قال علي : وكان أبو بكر مقدماً في كل خير وكان رجلًا نسّابة – فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . قال : وأي ربيعة أنتم ، أمن هاماتها أو من لهازمها ؟ – يريد أمن أشرافها أم من أوساطها – قالوا : من هاماتها العظمى ، قال: وأي هاماتها العظمى أنتم ؟ قالوا : من ذُهْل الأكبر . قال أبو بكر : فمنكم عوف بن محلمٍ الذي يقال فيه : لاحرّ بوادي عوف ؟ قالوا : لا ، قال: فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا : لا ، قال : فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء ؟ قالوا: لا...قال أبو بكر : فلستم ذُهْلًا الأكبر إنما أنتم ذهل الأصغر[1]...

ومنها – وهو أهمها – حياتها في كنف النبي ﷺ ورعايته ، حيث شاهدت أنوار التنزيل ، وسمعت الذكر الحكيم من فم النبي ﷺ غضاً طرياً ندياً ، واستمتعت بمحادثته عليه الصلاة والسلام ومحاورته ، فكانت أكثر الناس سماعاً للنبي ﷺ ومحاورةً له ومحادثةً معه .

كما شهدت من حجرتها الملاصقة للمسجد وفود العرب تفد على

---

(١) انظر الحديث كاملا في كتاب : «أبو بكر» وفي «الكامل» للمبرد و « الفائق » للزمخشري ، و « دلائل النبوة » للبيهقي .

النبي ﷺ ، فاستمعت إلى خطب خطبائها وشعر شعرائها وردود خطباء النبي ﷺ وشعراء أصحابه عليهم ، وأحاديث النبي ﷺ لهم وخطبه فيهم . ومع ذلك كله ما أوتيته من ذكاء وافر وذهن حاضر ، وصفاء سليقة وسرعة بديهة . وليس عجيباً بعد أن هيأ الله لها كل هذا أن تكون بما كانت عليه من الفصاحة والبلاغة ؛ حتى قال فيها زياد بن أبيه لما سأله معاوية وعزم عليه : أي الناس أبلغ ؟ قال : إذا عزمت عليّ فعائشة ، فقال معاوية : ما فتحتْ باباً قط تريد أن تغلقه إلا أغلقتْه ، ولا أغلقتْ باباً قط تريد أن تفتَحه إلا فتَحتْه[1] .

مؤدبة الأدباء :

عرفت السيدة عائشة رضي الله عنها ماللقرآن الكريم من أثر عظيم في تنمية الملكات الأدبية ، فأوصت تلاميذها بالعناية به والإقبال عليه تلاوة ودراسة وحفظاً ، وحرصت رضي الله عنها أن يكون تلاميذها علماء وأدباء في وقت واحد ، ولا يمكن لأحد أن يتبوأ هذه المكانة إلا بالإقبال على مائدة القرآن الكريم الذي لا يشبع منه العلماء ولايرتوي منه الأدباء ، وبلغ من حرصها على القرآن أنها كانت تنكر على من تسمعه يستعمل في كلامه غير كلمات القرآن وألفاظه ، قال يزيد بن بابنوس : ذهبت أنا

---

(١) صفة الصفوة .

وصاحب لي إلى عائشة ، فاستأذنـا عليها ، فألقت لنـا وسادة وجذبت إليها الحجاب ، فقال صاحبي : يا أم المؤمنين ما تقولين في العراك ؟ قالت : وما العراك ؛ وضربتُ منكب صاحبي ، فقالت : مَه آذيت أخاك ، ثم قالت : ما العراك ، المحيض ، قولوا ما قال الله : المحيض[1] .

وتحذر رضي الله عنهـا من الالتفات عن القرآن الكريم إلى غيره ، وتزجر من يحدث الناس بأحاديث تشغلهم عن القرآن ، قالت رضي الله عنها لابن أبي السائب قاصّ أهل المدينة : ثلاثاً لتبايعنيّ عليها أو لأناجزنَّك ، فقال : ما هنّ ؟ بل أنا أبايعك يا أم المؤمنين ، قالت : اجتنب السجع من الدعاء ، فإني عهدت رسول الله ﷺ وأصحابه لايفعلون ذلك ، وقصّ على الناس في كل جمعة مرة ، فإن أبيت فاثنتين ، فإن أبيت فثلاثاً ، ولا تُملّ الناس هذا الكتاب - القرآن - ولا ألفينَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقطع عليهم حديثهم ، ولكن اتركهم فإن جرّؤوك عليه وأمروك به فحدثهم[2] .

كما عرفت رضي الله عنها ما للشعر العربي من أثر في تقوية اللغة العربية وتحسينها ، فحفظت كثيراً منه ، وقـل أن تمر

---

(١) أخرجه أحمد ٢١٩/٦ .
(٢) الإجابة .

بمناسبة إلا وتستشهد لها بما يناسبها من الشعر ، ومر معنا ما يدل على ذلك ، وقد حفلت كتب الأدب بكثير من الأشعار التي كانت السيدة تستشهد بها ، أخرج ابن عبد ربه عن ابن أبي مليكة قال : قالت عائشة : رحم الله لبيداً كان يقول :

قضِّ اللُّبانة لا أبالك واذهبِ والحقْ بأسرتك الكرام الغُيَّبِ
ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خلْفٍ كجلد الأجرب

فكيف لو أدرك زماننا هذا ؟ ! ثم قالت : إني لأروي ألف بيت له وإنه أقل ما أروي لغيره[1] .

ولذلك كانت توصي بتعليم الأولاد الشعر وتقول : روُّوا أولادكم الشعر تعذبْ ألسنتهم[2] .

وتغضب رضي الله عنها إذا سمعت أحداً يلحن في كلامه فتزجره بشدة ، قال ابن أبي عتيق : تحدثت أنا والقاسم عند عائشة حديثاً ، وكان القاسم رجلاً لحّانةً ، وكان لأم ولد ، فقالت له عائشة : مالك لاتُحدِّث كما يتحدث ابن أخي هذا ؛ أما إني قد علمتُ من أين أُتيت ، هذا أدّبتْهُ أمُّه وأنت أدبتك أمُّك ، قال : فغضب القاسم وأضبَّ عليها - أي حقد - فلما رأى مائدة عائشة قد أُتي بها قام ، قالت : أين ؟ قال : أصلي ،

---

(١) العقد الفريد .
(٢) المرجع نفسه .

قالت : اجلس غُدَرُ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا صلاة بحضرة الطعام ولا هو يدافعه الأخبثان[1] » .

من روائع أدبها :

– روى ابن عساكر وأبونعيم والخطيب بسند حسن عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل ، والنبي ﷺ يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبهتُّ ، فقال : «مالك بُهِتّ ؟ ! » قلت : جعل جبينك يعرق ، وجعل عرقك يتولد نوراً ، ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك بشعره أولى حيث يقول :

ومبرأٍ من كل غُبَّرِ حَيضةٍ وفساد مرضعةٍ وداء مُغْيِـل[2]
وإذا نظرت إلى أسرّة وجهه برقت بروق العارض المتهلل[3]

– قيل لعائشة رضي الله عنها : صفي لنا أبا بكر ، فقالت : كان أبيض نحيفاً ، أجْنأ – أي منحنياً – لا يستمسك إزاره ، يسترخي عن حقويه – خاصرتيه – معروق الوجه ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، عاري الأشاجع – الأصابع –[4] .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أي لم تحمل به في بقية حيض ولاحملت بغيره حالة رضاعة فيفسد رضاعه .

(٣) انظر كتاب « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

(٤) أبو بكر .

– وبعد موت أبي بكر وقفت رضي الله عنها على قبره فقالت :

نضّر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإعراضك عنها وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزءك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك ، فأنا أنتجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك ، وأستعيضه منك بالدعاء لك ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وعليك السلام ورحمة الله ، توديع غير قالية لحياتك ، ولازارية على القضاء فيك[1] .

وقالت عند قبره يوم الحكمين :

رحمك الله يا أبت ، فلئن أقاموا الدنيا لقد أقمت الدين لما وهى شِعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه ، انقبضت مما أصغوا إليه ، وشَمرتَ فيما وَنَوْا فيه ، واستخففت من دنياك مااستوطنوا ، وصغّرت منها ماعظموا ، ورعيت دينك فيما أغفلوا ، أطالوا عنان الأمن ، واقتعدت مطي الحذر ، ولم تهضم دينك ، ولم تشن غدك ، ففاز عند المساهمة قدْحك ، وخف مما استوزروا ظهرك[2] .

---

(١) أبو بكر .
(٢) عائشة والسياسة .

وقالت :

توفي رسول الله ﷺ ، فوالله لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها ، اشرأبّ النفاق في المدينة ، وارتدت العرب... فوالله ما اختلفوا في نقطة إلاّ طار أبي بحظها وغنائها في الاسلام ... ومن رأى عمر بن الخطاب عرف أنه خلق غناءً للاسلام ، كان والله أحوذياً نسيجَ وحده ، وقد أعدّ للأمور أقرانها[1] .

بلغ عائشة رضي الله عنها أن أقواماً ينالون من أبي بكر رضي الله عنه ، فأرسلت إلى جماعة منهم ، فلما حضروا سدلت أستارها ، ثم دنت فحمدت الله تعالى وصلت على نبيه محمد ﷺ ، وعذلت وقرّعت ، ثم قالت : أبي وما أبِيَهْ ؟ أبي والله لا تعطوه الأيدي – تناوله – ذاك طوْدٌ منيف ، وفرع مديد ، هيهات كذبت الظنون ، أنجح إذ أكديتم – خبتم – وسبق إذ ونيتم – فترتم – سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأمد – الغاية – فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلًا ، يفك عانيها ، ويريش مملقها ، ويرأب شعبها – يجمع متفرقها – حتى حَلِيَتْهُ قلوبها ، ثم استشرى

(١) عائشة والسياسة ، وقال الأستاذ الأفغاني معلقاً على هذه الكلمة : لقد وقعت السيدة في وصف عمر على الكلمة التي لا كلمة غيرها في العربية تصدق على عمر ، وهذه من جوامع كلمها وآيات بلاغتها .

في الله تعالى ، فما برحت شكيمته في ذات الله تعالى حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون ، وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيذ الجوارح — عليل الجوارح - شجيّ النشيج - صوت البكاء - فانقصفت إليه نسوان مكة وولدانها يستخرون منه ويستهزؤون به [الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون] ، فأكبرت ذلك رجالات قريش ، فحنت له قسيّها ، وفوّقت له سهامها ، وانتثلوه غرضاً - أي جعلوه هدفاً لسهامهم - فما فلّوا له صفاةً ، ولا قصفوا له قناةً ، ومر على سيسائه - أي استمر ولم يثنه شيء - حتى إذا ضرب الدين بجرانه ألقى بَرْكته ورست أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجاً ، ومن كل فرقة أرسالاً وأشتاتاً ، اختار الله عز وجل لنبيه ﷺ ما عنده .

فلما قبض ﷺ نصب الشيطان رواقه ، وشد طُنُبه ، ونصب حبائله ، وظن رجال أن قد تحققت أطماعهم ولات حين مناص ، وأنّى والصدّيق بين أظهرهم !! فقام حاسراً مشمراً ، فجمع حاشيته ورفع قطريه ، فرد نشر الاسلام على غَرّه - على طيه - ولَمّ شعثه بطيّه ، وأقام أوَده بثقافه - أي قوّم عوجه - فاندفر - تفرق - النفاقُ بوطأته ، وانتاش الدين فنعشه ، فلما أراح الحق إلى أهله ، وقرّرَ الرؤوس على كواهلها ، وحقن الدماء في أُهبها ، - جلودها - أتته ميتته ، فسد ثلمته بنظيره في

المرحمة ، وشقيقه في السيرة والمعدلة . ذاك عمر بن الخطاب ، لله أمٌّ حملت به ، ودرَّتْ عليه ، لقد أوحدت به - أتت به وحيداً - ففنخ الكفرة - أي أذلها - وديَّخها ، وشرَّد الشرك شَذَرَ مذَرَ ، وبعج الأرض وبخعها - أي شقها - فقاءت أكلها ، ولفظت خبيئها ، ترأمُه - أي تعطف عليه - ويصدف عنها ، وتصدَّى له ويأباها ، ثم وزَّع فيها فيئها ، وتركها كما صحبها ، فأروني ماذا تريبون ! وأي يوم تنقمون ؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم ، أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أستغفر الله العظيم لي ولكم[١] .

ومن كلماتها :

ما تبالي المرأة إذا نزلت بين بيتين من الأنصار صالحين ألا تنزل بين أبويها[٢] .

لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاء[٣] .

النكاح رِقٌّ فلينظر أحدكم عند من يُرِقُّ كريمته[٤] .

لاسهر إلا لثلاثة : مصلٍّ أو عروسٍ أو مسافرٍ[٥] .

---

(١) صفة الصفوة .
(٢) عيون الأخبار .
(٣) تفسير الخازن .
(٤) العقد الفريد .
(٥) عيون الأخبار .

وقيل لها : إن قوماً يشتمون أصحاب محمد ﷺ فقالت : قطع الله عنهم العمل ، فأحب ألا يقطع عنهم الأجر[1] .

وقالت أيضاً : أُمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبُّوهم[2] .

خاتمة

أسأل الله حسن الخاتمة

أخي القارىء :

لا تظنن أن هذا الذي قرأته في الكتاب ، كل شيء عن السيدة عائشة رضي الله عنها ، فالحديث عن السيدة حديث طويل ، واستقصاء مواقفها وكلماتها وخطبها وآرائها يحتاج إلى مجلد كبير ، وحسبي حتى لا أطيل عليك هذه النبذة المنتقاة من حياتها وأخبارها ،

(١) عائشة والسياسة .

(٢) مسلم ، والذي أشارت إليه قوله تعالى : « والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ، ربنـا إنك رؤوف رحيم » الآية ١١ من سورة الحشر .

ولعلي - إن وُفـّقتُ بعون الله إلى نشر مسندها - أن أقدّم فيه مجموعة كبيرة من آرائها وكلماتها مع مروياتها عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وقد أمسكت عن الخوض في الآثار التي خلـّفتها السيدة في قلوب الناس وانقسام آرائهم حولها ، لأني لم أجد ضرورة لذلك أو حاجة ، وسعني في هذا ما وسع السيدة نفسها بما نقلته لك في آخر كلمة من كلماتها في الكتاب ، وأرجو أن يسعك ما وسع السيدة ، فتمسك كما أمسكت رضي الله عنها وعنهم جميعاً .

فإن وفقتُ في هذا الكتاب إلى بيان الحقيقة ، فذلك من فضل الله سبحانه عليّ ، وإن أخطأت فمن ضعفي وقصوري ، وأسأله سبحانه أن يغفر لي .

وأرجوه سبحانه أن يجعل ثواب هذا الكتاب - إن تفضّل عليّ ربي به - في صحيفة سيدي وشيخي محمد الحامد رحمه الله تعالى ، الذي علمني وأرشدني ، وفي صحيفة والدي رحمه الله الذي رباني ونشأني . والحمد لله أولاً وآخراً .

المراجع

١ – أبو بكر الصديق ، لعلي الطنطاوي ، الطبعة الثانية .
٢ – الإجابة لإيراد مااستدركته عائشة على الصحابة ، لبدرالدين الزركشي ، تحقيق سعيدالأفغاني ، الطبعة الثانية .
٣ – أخبار عمر ، لعلي الطنطاوي وأخيه ناجي الطنطاوي .
٤ – أسد الغابة في معرفة الصحابة ، لابن الأثير ، طبعة « كتاب الشعب » .
٥ – الاسلام والمرأة ، لسعيد الأفغاني ، الطبعة الثانية .
٦ – أنس بن مالك (الخادم الأمين والمحب العظيم) لعبد الحميد طهماز ، نشر دار القلم بدمشق .
٧ – البداية والنهاية ، لابن كثير ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ببيروت .
٨ – تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، نشر دار المعارف بمصر .
٩ – تحفة الأحوذي (شرح سنن الترمذي) المباركفوري ، بإشراف محمد عبد الرحمن .
١٠ – تذكرة الحفاظ ، للذهبي ، الطبعة الرابعة ، نشر محمد أمين دمج ؛ ببيروت .
١١ – الترغيب والترهيب ، للمنذري ، بتحقيق محمد مصطفى عمارة ، الطبعة الثانية .
١٢ – تفسير ابن كثير ، الطبعة الثانية ، المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

١٣ ـ تفسير الخازن ، الطبعة الثانية ، البابي الحلبي بمصر .
١٤ ـ تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلاني ، دار صادر ، بيروت .
١٥ ـ حلية الأولياء ، لأبي نعيم الأصبهاني ، نشر دار الكتاب العربي (بيروت) .
١٦ ـ حياة الصحابة ، الطبعة الثانية (محققة) نشر دار القلم بدمشق .
١٧ ـ دراسة تطبيقية في الحديث النبوي ، الدكتور نور الدين العتر ، دار الفكر بدمشق .
١٨ ـ سعيد بن المسيب ، للدكتور وهبي الزحيلي ، دار القلم بدمشق .
١٩ ـ السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، لمحب الدين الطبري ، مكتبة التراث بحلب
٢٠ ـ سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، البابي الحلبي .
٢١ ـ سنن أبي داود ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية .
٢٢ ـ سنن الترمذي ، بإشراف عزت عبيد الدعاس ، طبعة حمص .
٢٣ ـ سنن النسائي ، نشر دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٢٤ ـ سير أعلام النبلاء ، للذهبي ، جزء مخصوص بالسيدة عائشة ، علّق عليه سعيد الأفغاني .

٢٥ – صحيح البخاري ، تحقيق النواوي ، وأبي الفضل إبراهيم والخفاجي ، مكتبة النهضة الحديثة بمصر .
٢٦ – صحيح مسلم ، بشرح النووي ، المطبعة المصرية .
٢٧ – الصدّيقة بنت الصدّيق ، لعباس محمود العقاد ، كتاب الهلال عدد ٦٩ .
٢٨ – صفة الصفوة ، لابن الجوزي ، نشر دار الوعي بحلب .
٢٩ – الطبقات الكبرى ، لابن سعد ، نشر دار صادر ودار بيروت .
٣٠ – عائشة والسياسة ، لسعيد الأفغاني ، الطبعة الثانية .
٣١ – عثمان بن عفان (الخليفة المفترى عليه) لمحمد صادق عرجون ، الدار القومية للطباعة والنشر .
٣٢ – العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ، نشر دار الكتاب العربي ، بيروت .
٣٣ – عيون الأخبار ، لابن قتيبة ، مصورة عن طبعة دار الكتاب ، تراثنا .
٣٤ – عيون النجابة في معرفة من مات بالمدينة من الصحابة ، لمصطفى العلوي الرافعي .
٣٥ – غنية المتملي في شرح منية المصلي ، أو (الحلبي الكبير) لإبراهيم الحلبي ، طبعة تركية .
٣٦ – فتح الباري (شرح صحيح البخاري) ، لابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت .

٣٧ ـ فيض القدير (شرح الجامع الصغير) للمناوي ، الطبعة الأولى ، المكتبة الكبرى في مصر .
٣٨ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي .
٣٩ ـ المتعـــة حرام في الاسلام ، لسيدي محمد الحامد ، الطبعة الأولى .
٤٠ ـ محمد رسول الله ﷺ : شمائله الحميدة وخصاله المجيدة ، لعبد الله سراج الدين ، الطبعة الأولى .
٤١ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للهيثمي ، طبعة مكتبة القدسي .
٤٢ ـ المستدرك على الصحيحين ، للحاكم ، نشر مكتبة النصر الحديثة في الرياض .
٤٣ ـ مسند أبي يعلى ـ مخطوط .
٤٤ ـ مسند أحمد بن حنبل ، المكتب الاسلامي ودار صادر .
٤٥ ـ مسند أنس بن مالك ، لعبد الحميد طهماز ، مخطوط .
٤٦ ـ مسند عائشة ، لعبد الحميد طهماز ، مخطوط .
٤٧ ـ المصنف ، لعبد الرزاق الصنعاني ، نشر المجلس العلمي .
٤٨ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية ـ طبعة الكويت .
٤٩ ـ المغني في الضعفاء للذهبي ، تحقيق وتعليق الدكتور نور الدين العتر ـ نشر دار المعارف .
٥٠ ـ النهـاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي ، دار إحيـاء الكتب العربية ـ الطبعة الأولى .

فهرس

أعلام المسلمين

سلسلة كتابية هادفة تترجم
لأعلام المسلمين في شتى الميادين

تترجم هذه السلسلة لأعلام المسلمين وقادتهم، الهداة الدُّعاة المخلصين، الذين عاشوا لهذا الدين: يخدمونه، ويبذلون النفس والنفيس من أجله، والذين كان همّهم الأعظم في حياتهم نصرته، ورفع لوائه، ودعوة الناس إليه، ومجاهدة أعدائه بالقلم واللسان أو بالسيف والسنان.

وستتّسع إن شاء الله تعالى لرجالات الإسلام العِظام، من عهد الصحابة رضي الله عنهم وإلى يوم الناس هذا، وستكون بعونه تعالى فتحاً جديداً في عرض تاريخ الإسلام، ممثلاً في سير أعلامه، الذين كان لهم أكبر الأثر في حياة المسلمين وتاريخهم على مرِّ العصور.

يشترك في تحريرها نخبة من أصحاب الأقلام الإسلامية الواعية.